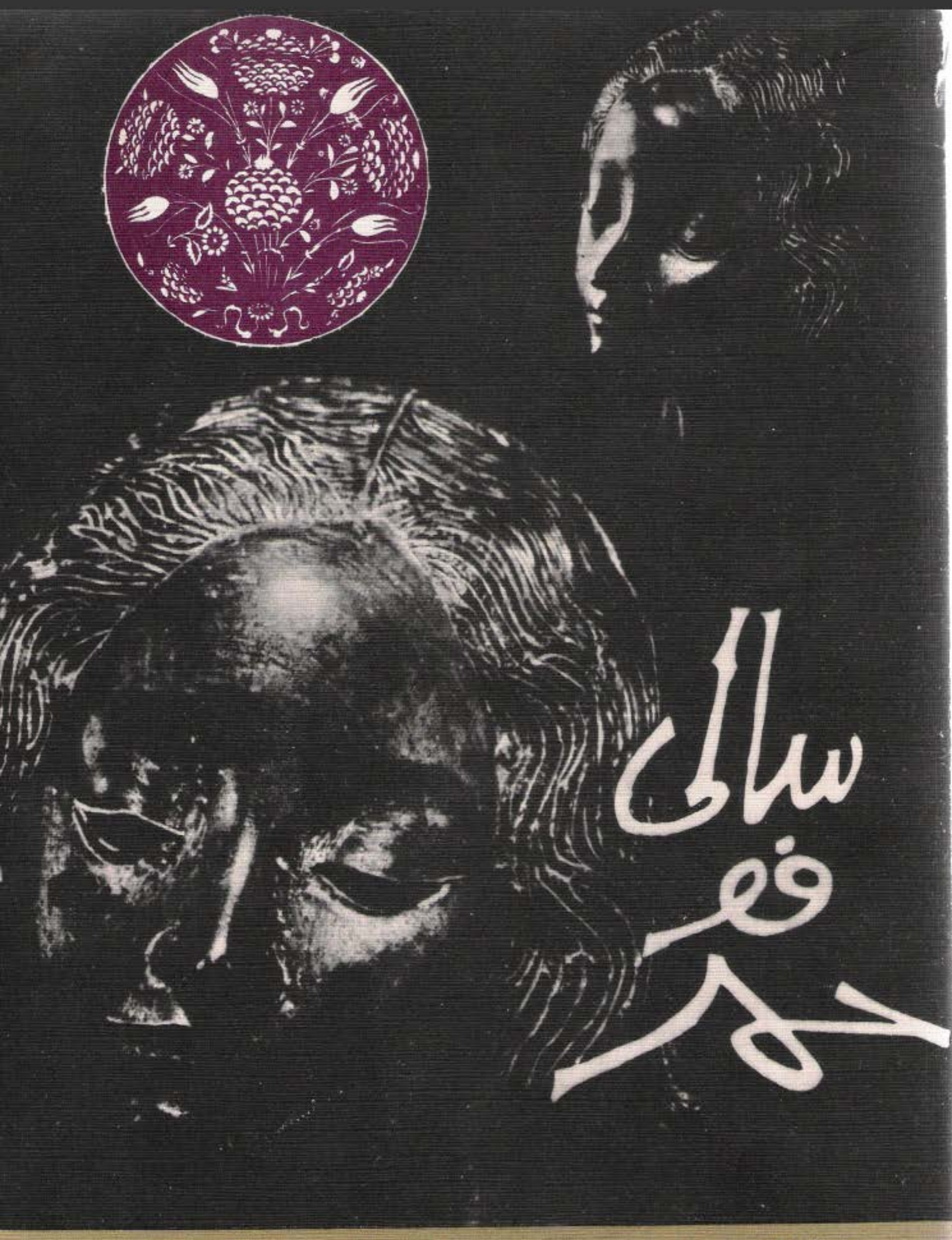
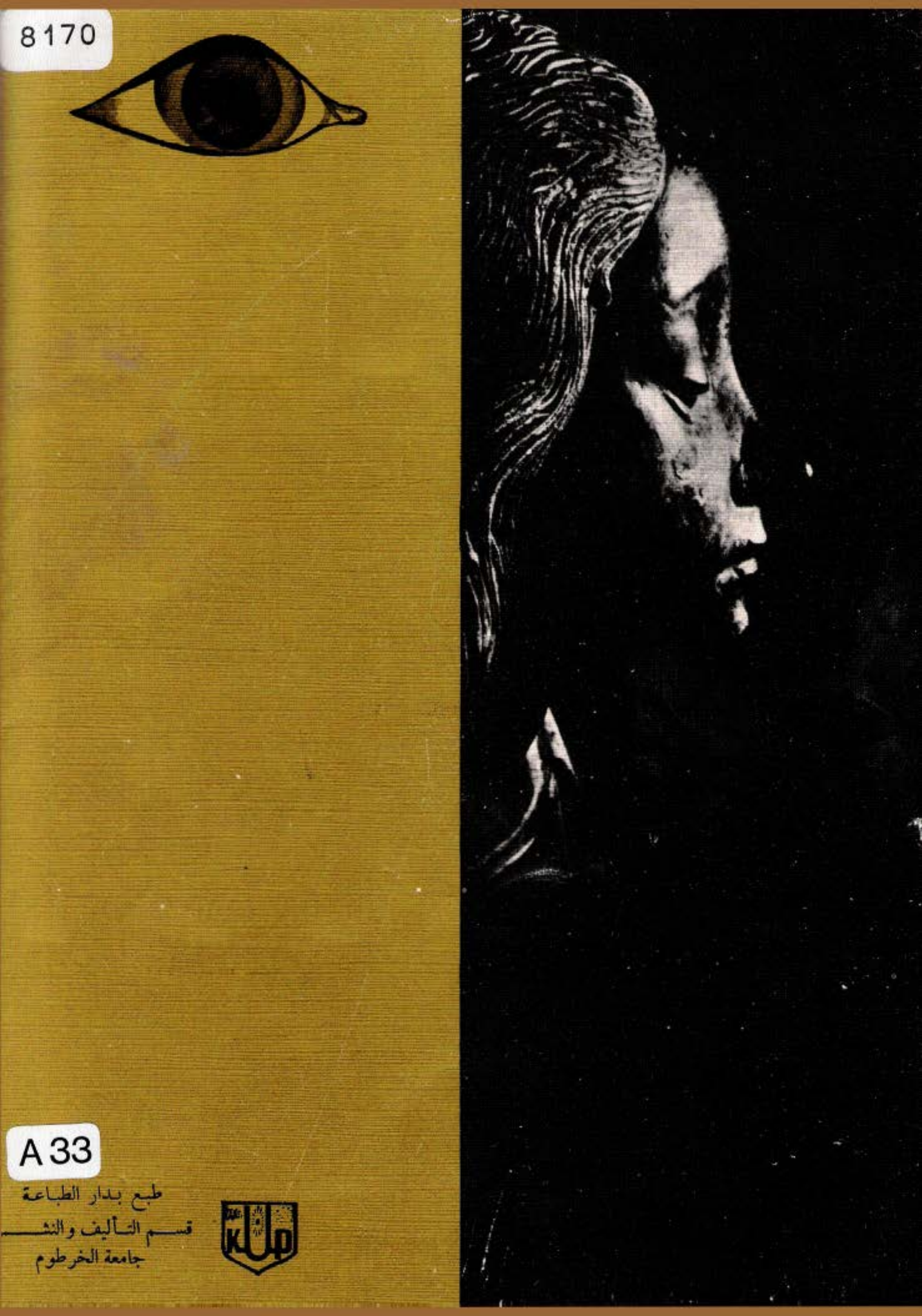


جمال محمد أحمد



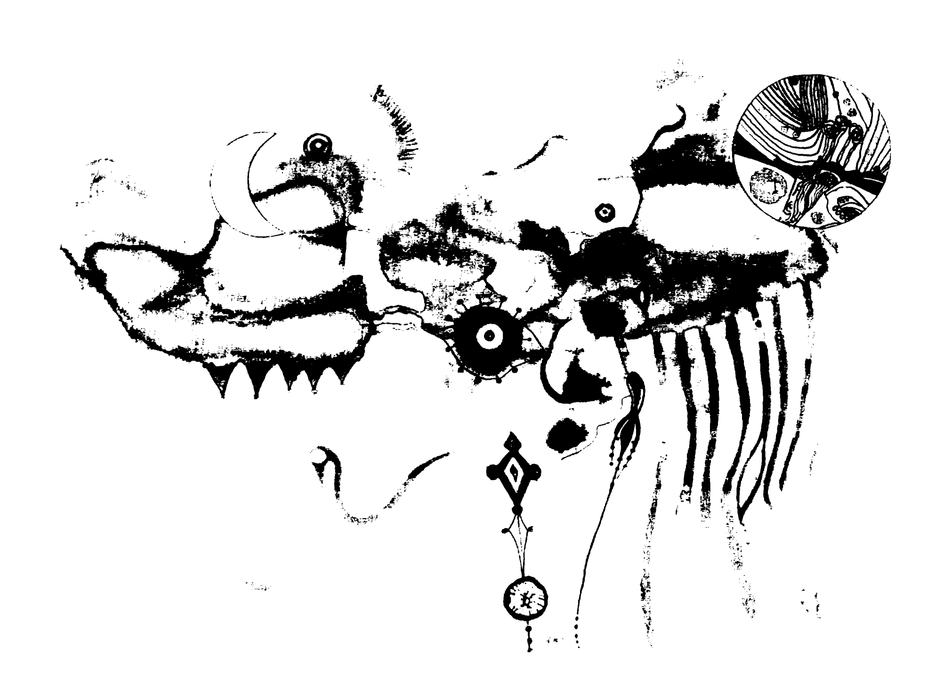
8170
A 33
طبع بدار الطباعة
قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم
KUP

سالی فوحمر

سالي فو حمر

وحكايات أخرى من أفريقيا

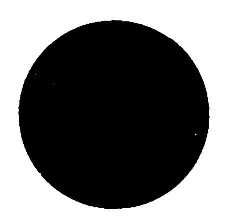
جمال محمد أحمد



قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم
ص.ب : ٣٢١ - الخرطوم

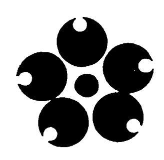
الطابعون : دار الطباعة جامعة الخرطوم





رسومات وتصميم :
حسين شريف
خطوط : سيف الدين

فهرست



إهداء وتقديم

لعارف وعاطف .. أسوق هذه
الحكايات ، إشارة عرفان ، وتعبير حب .
أهديها لكما وللعيون في كل بيت عربي .
هنا في مشرقه وهناك في مغربه ؟ في الشام ،
في وهران ، في ظفار ، في الشحر .



عارف أيها العزيز ، ياعاطف،

قلت « إشارة عرفان » لأنكما سألتما قبل شهور عن هذه الحكايات، أين هي ؟ ثم رحتما تبحثان عنها في كل مكان بين أوراقي المبعثرة ، في دار عمكم سيد ، وأخي خليل ، وشقيقي داود ، وكل بيت يأويني ويأويكم حين نعود من طوافنا، لايستقر بنا مقام ، لانقيم في دار سيد ، إلا ريثما نرحل لدار داود أو توفيق ، يحسنون إلينا ، يتمتعون بأحاديثنا ، اللهم لاغرور .

وضحكتما حين قرأتما الحكايات،رأيتما سذاجة لاتتسق والعمر الذى بلغتماه الآن ، أحدكما في الثامنة عشر ، وثانيكما في الرابعة عشر ، وثار بيننا حوار حين إقترحتما أن أعيد كتابتها لاليقرأها الصبيان الذين هم في عمريكما الآن ، بل ليقرأها من هم أقل منكما في العمر بثماني سنوات. كان لطفاً منكما أن تشيرا على بالنشر، وأن تحثاني على كتابتها ثانية ، فما عدتما صغيرين ، كما كنتما حين تجيئان « أديس » في الصيف ؟ أتذكران ؟ لا أحسب .

كنتما تجيئان عطلة الصيف ، وتطوفان مكتبتي ، لاتجدان مايلذكما، مايثيركما ، لسان العرب طويل، عشرون مجلداً . الأغاني لاتطيقانها . تخوضان العنعنات ، وأسماء الرواة لتصلا لاهثين إلى قصة لاتعيانها ، أو أغنية لاتسلي؛ هذه لاتستأهل الضنى وتلك أكثر الأحيان مفتعلة إفتعالاً ، لتقود للأغنية . تفسير النسفي ، القرآن أيسر ألف مرة مما أراد له الماتريديون . القرآن كلمات بينات ساحرات . لكنكما كنتما صغيرين تريدان كفاء العناء متعة . وكتبي لم تعطكما هذه المتعة .

* * *

لن أصدقكما الحديث إن لم أفض اليكما الآن ، وقد تقدمت بكما السنون ، إني كنت أحس شقاءكما بكتبي ، وأكتمه خشية أن تكرها تراثنا وهو تراث جميل لو تعلمان ، لا أقول عظيم . ستعرفان حين تسير بكما الحياه إلى الأمام ، إن الجمال أولى من العظمة ، صدقاني عارف وعاطف ، وكل العيون ، إني ماعرفت حتى يومى هذا معنى مستقيماً لكلمة العظمة . عثمان بن عفان الطيب الذاهل عظيم ، ومعاوية الغادر الخادع عظيم . ماهو الفيصل ، الجمال أدق ، أدركه في دمي ، تكاد تلمسه يدى وهو مجرد . قال عمكما العقاد مرة أنه « قنطار ثمين » وقامت عليه قيامة الغافلين . قالوا مافهمنا عنه مايريد ، وكانوا صادقين ، وإن سألتماني اليوم عما أراد لأطلت الحديث دون غاية . وإن كنت أقدر التعبير ، أحبه. ماذا يعنيني أن

أفهم . وأنــا الذى أعرف طيباً الآن عناء سيدى العقاد بعد أن مارست قليلاً الكتابة. عواطفى. أبداً خلف كلماتي. عرجاء عاجزة، ويقينى أن العقاد كان هكذا . تزدحم الأفكار والأحاسيس فى قلبه الكبير وعقله. ويجلس ليسجلها، فإذا المثال فى القلب والعقل شىء، والواقع على الورق، أميال وراء. و« ايفلن و و » الكاتب الساخر صاحب « الذبول والأفول » وغيرها من روائع القصة المعاصرة ، عبر عن هذا خير تعبير . حين كتب فى رسالة لصديقه «راندلف تشرشل» يقول إنه لايعد الكتابة بحثاً فى أعماق شخوص رواياته ، بل يعدها (أعنى الكتابة) بحثاً مضنياً عن الكلمات . أنا مغرى بها . بموسيقاها . بإشاراتها . برموزها أكاد « أكون رقيق الكلمة » وما ببعيد عنى هذا . غبطتى الكبرى هى تلك اللحظة . التى تتسق فيها الكلمات والأفكار ويعيش لها الواحد . وما أندر هذه اللحظات . المثال فى العقل والقلب . والذى أستطيعه منه « مترْوم » قليل ، رغم عيشى الذى تسخران منه حين ترياني كثيراً مع المعاجم والتفاسير تقولان « فى زول بيقرأ القواميس » عبرة لكما وللعيون فى كل بيت عربي ، الكلمة هى الوسيلة والغاية معاً . لاوجود لهذه دون تلك . عليكما أن تعيشا فى محرابها إن أردتما لأمتنا البقاء الفنى . كل كلمة فكرة محددة .

*

كتبت هذه الحكايات لتزجيا الفراغ . وأعيد كتابتها لهذا الهدف عينه ولأعرض عليكما شيئاً ممايستطيعه اللسان العربي . فأنا غير راض عن كثيرمما تقرآن هذه الأيام من كتب وصحف . وأشفق عليكما أن تحسبا هذا الذى تقرآن . يمثل عبقرية اللغة ، وماهى كذلك فى تقديرى ، وأخشى عليكما فى الوقت نفسه من بعض معلمى أيامنا هذه ، إنه جيل لايجد فسحة من الوقت ، ليقف طويلاً عند :

ربذ يداه بالقداح إذا شتا   وهتاك غايات التجار ملوم

البيت الذى كنت تقرأ لى من معلقة عنترْ ياعارف ، قصيدة عامكم هذا فى الشهادة الثانوية . أخشى عليكما من ضجر ينتقل إليكما من معلم عجل ، وهو يقرأ عليكما ويتثاءب ، ضائقاً :

حييت من طلل تقادم عهده   أقوى وأغفر بعد أم الهيثم

سأحزن إن ضجرتما . لأني من جيل أعانه على هذه المشقات أشياخنا البشير والمصرى رضى الله عنهما . والمجذوب . أطال الله بقاءه .كانوا يتواجدون ويهتزون عندما يقرأون علينا «مقام عنترْ مع من أحب » . هى « بعنزتين » وأهلها بالهيضم . وهو يهاجر اليها ماراً

«بالحزن. فالصماء. فالمتلثم». وكان وجدهم يعدى ، وفى عين مخيلتى شيخنا المهيب الأمين يكاد يبكى . إن لم نشاركه فتنته بعبقرية هذا اللسان ، حفظه الله حفظاً فى قرآنه . هذه المشقات إستحالت على يدهم وجداً نحسه حتى اليوم.وأنا سعيد بكما لأنكما كنتما تصبران على أنغام المعرى « ياذوات الهديل » وشوقى « دنياك من عاداتها » . الحزن والصماء والمتلثم . أماكن لا تحتاج أن تعرف أين هى . وتحتاج أن تحملها فى قلبك،فى وجدانك تترنم بها لتعرف فى النهاية ، كيف تبين عن نفسك ، وكيف ترفد لغتك بما تحتاجه هذه الأيام من دم حار جديد دافق . هكذا يفعل صبيان أوروبا يخوضون عبر«دانتى» و«شوسر» دموعهم تذرف من مشقة مايحفظون للإمتحان لكنها القاعدة، التى تنطلق منها الحيوية التى تريانها فى بعض لغات أوروبا ، تمتص كل جديد فى العلوم وأدوات المعامل والمصانع ، ودقائق مايتمخض عنه العقل الحديث فى الرياضة والطبيعة ، ومامنها بسبيل . ستكبران قريباً أيها العزيزان ، ولن تحسنا إلى أنفسكما ، إن لم تقرآ للمتعة والمنفعة المخصص ، واللسان ، والمحيط ، والمتنبىء ،مع ما ستقرآن من هندسة الزراعة ، وإدارة الأعمال ، إذن تفصحان عن نفسيكما وتبينان ، وتحفظان الحضارة العربية الإسلامية من أن تبتلعها الحضارة المسيحية الآلية . وتحفظان عليكما ذاتيتكما وعزتكما ، ومن يدرى ربما صنتما الروح العربية من طوفان هذه الحضارة التى أسلمت نفسها للأوزار والآلة الصماء . وتلقى الآن رهقاً . يعبر عنه الطلاب فى الغرب ، أتعس تعبير . بالضرب والركل والهراوات ، والكبار بالرفض والجرى وراء كل تجربة .

يريدون كلهم ليعيدوا للإنسان مقامه فى الكون ولايعرفون . كيف تنقذان أيامكما القابلة من التعس الذى يعيشه شباب الحضارة المسيحيةالآلية. يقودهم«كوهن بندت» ، «بيير روسو»،«طارق على »، و«رودى دتشكا» . (لهم قبعتى أرفع) كما يعبرون . يحس كل واحد منهم أمراض حضارته . ويبحث جاهداً عن دواء . وأعيذكما من أن تصلا إلى هذا المستوى. فلا تأخذا العبرة عنهم . ففى تراثنا خلاصنا . وفى الحضارة الآلية رفاهيتنا .

* * *

دخلت الحضارة المسيحية الآلية مرحلة الشقاء والتساؤل عن جدوى هذه القدرات التى يمتلكها الإنسان ، والعجز الذى يرافقه . أحب لكما أن تتقنا مايجيئنا من قدرات ، وأن تهدفا ليوم نضيف من عندنا لهذه القدرات الآلية . لن تطول فترة إعتمادنا على أوروبا

الصناعية فاقدة الوجهة والسبيل . وأكره لكما أن تحضنا هذه الحضارة الآلية ، غير ممزوجة بعبقرية الروح العربية ، وأداة هذه الروح هي لغتنا هذه التي وقف تقدمها ، يوم أن إنتقلت الشعلة الحضارية من الشرق إلى الغرب ، حين عرف هؤلاء الآلة ، وسبقوا كل قوم ، شباب حضارة الآلة يئسوا منها كما قلت، لأنها قد حولت الإنسان نفسه إلى آلة ، ويبحثون في رجولة عارمة عن مرفأ يقفون وراء الأسوار ، يضيعون فريسة عنف الشرطة والكبار في الدولة . الشباب عمالقة عيونهم بالنجوم عالقة ، والكبار والصغار أكثرهم لايرى أبعد من أنفه . أولئك شباب يتصورون مستقبلاً ، يبغون له أن يجيء اليوم دعاة تغيير . رعاهم الله ، وقاعدون من الكبار . شكراً للذى قدموه حين كان بوسعهم أن يقدموا. ليتهم عرفوا متى يروحون، ويفسحون الطريق للهواء النقى الجديد .

* * *

لنعد للذى كنا بصدده ، عاطف أيها الكتوم ، عارف أيها الواثق من نفسه وثوقاً أتخيلك تسألني وأنت في حصنك الواثق المعتد بنفسه «جمال . ماذا تريد أن تقول ؟ أنت أبداً هكذا ترى الأشياء كلها معاً ، دفعة واحدة دافقة ، وتضطرب ، تتردد . لكل شيء جوانب». فهمت عنك أيها العزيز ، وأعترف ، ولكنى سأسعى لأفصح عن نفسى فى كلمات دقيقة محدودة ، كما تحب دائماً أنت .

* * *

أنا حين أهدى لكما هذه الحكايات ، وقد أعدت كتابتها ، أهديها لكل لداتكما فى منطقتنا العربية ، وللذين يقرأون العربية ، فى بلاد تشترك معنا فى الرابطة الروحية . أفعل هذا لسببين : لأمتع نفسى وأمتعكما إن نجحت بالكلمات ، تماماً كما يمتع الموسيقار المؤلف نفسه بألحانه . والسبب الثاني هو أن أفتح لكم جميعاً نافذة تطلون منها على العقل الأفريقى ، كيف يعمل،فالحكايات عندى أضواء مشرقة على عقول من صنعوها . ستعرفون أن القارة الأفريقية مزيج مثير من العقل البارع ، والغاب الكثيف ، والقمل القبيح ، والمعرفة أول طريق الحب . إن أشطاراً ليست صغيرة ولاقليلة ، أخوة لنا فى الثقافة والحضارة . وإن تباينت اللغة ، بعد أن طرد العربية المستعمر الأوربي ، وكادت أن تكون لغة القارة ، كتب بها العلماء فى تمبكتو ، وجنة. دفع هؤلاء العلماء الناس دفعاً لمقاومة الغزو الأوربي ، على النحو الذىلم يفعله الأفريقيون عبدة الآلهة الأفريقية،وأهل الدين المسيحى ، وكان هؤلاء قلة . قاوم المسلمون مقاومة ، وكان لامعدى

للفاتحين من أن يحفظوا سلطانهم ، بمقاومة الإسلام خفية وخداعوه وحرب العربية أداة هذا الدين المحارب المعتز بنفسه ، حارباً، بشراسة وحاربوا اللغة .

عمل الغزاة على طمس معالم الإسلام ولغته ، ولكنى لن أقول شيئاً عن كيف وقع هذا ، لأني لا أكتب تاريخاً الآن ، وإن كنت أحب لكما أن تعرفا ماكتبت للكبار عن أحمد بابا وعن السعدى ، مصباحى تمبكتـــو وجنة . قهرت أوروبا الصناعية ذات العزيمة والرصاص لغتنا وديننا فى كل مكان ، لتحيا فى رخاء يتيح لها به أن تفتن الناس فى باريس ولندن ونيويورك . لاأقول هذا لألوم أوروبا المعتدية . أقولها حقيقة واقعة ، وستذكران أني دائمـــاً كنت أقرأ عليكما بيت شوقى الذى أدرك السياسة ودهاليزها ، خير إدراك : دنياك من عاداتها ألاتكون لأعزل * خلقت لحربيتلى فى ذى الحياة ويبتلى أفريقيا كما كتبت للكبار مرة أندلس أضاعه على العرب عصر الحضارة الآلية المسيحية وكانت معتدية قادرة ، وأضاعها قصور العرب على النحو الذى ضاعت عليه الأمبراطورية الرومانية . رخاوة العقل ومايتبع هذا من رخاوة فى الكدح والأمانة والإستقامة ، وكل هذه الصفات التى تحفظ على الناس كبرياءهم وكأنها بين الناس . القوة فى اليد واللسان .

أغفروا لى هذه الثرثرة ، أيها الأعزاء . ماقصدت إليها ، تناثرت الخواطر ، خاطرة بعد أخرى ، وقرأتها ثانية ، ورأيت التفت فيها ، ولكنى أبقيت عليها كما جاءت فى خاطرى أول الأمر تركتها كماهى ، لأني أكتب إثر هزيمة نكراء فى حياتنا . أكتب وآباؤكم يعيشون فى وحشة ما ألفها عصر من عصورهم قط . أكتب وقد مضى على عار هزيمتنا عام ونصف عام . هزمتنا حفنة من المؤمنين بالصهيونية ، وأريد لكم أن تؤمنوا إيماناً فعالاً بالعروبة لتغسلوا العار عنا إن إستعصى علينا نحن إزالته ، وأحب أن تنتقل منا إليكم ، بلاد عزيزة ، فى طريقها للتعاون الوثيق ، طريق الوحدة القديمة العزيزة المهابة . أتونا كاللصوص فى الليل ، علماء وصناعاً وأهل حكم وإدارة . أتونا ونحن يجادل بعضنا بعضاً ويحارب بالكلام ، وحيناً بالسلاح ، لاصناعة عندنا لاعلم لافنون . أتونا مؤمنين ولقيناهم مترددين .

* * *

أسرفت فى الحديث عن عبقرية العربية لأني كما يقول أهلنا فى السودان «ممكون» ولا أريد أن تكونوا مثلنا ، نحن جيل الهزيمة والشقاق.

من يدرى ربما أسلمناكم بلداً واحداً عزيزاً . ولكن إن أخفقنا . لم كان إخفاقنا ؟ أسألوا .

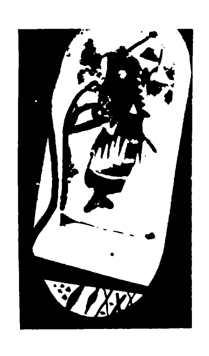
إقرأوا أيها الصغار « سالى فو حمر » وإخواتها من الحكايات الأفريقية ، بحب ، بغرض . ولاتكرهوا — أرجوكم ، أرجوكم — الثرثرة التى حالت دونكم ودونها حتى الآن . لأني أريد لكم أن تنجحوا فى الذى تعثرنا فيه كما قلت قبل قليل ، وأن تعدوا لهذا النجاح بحب لغتكم حب من فتن بها كما قلت ، حين تحدثت عن أشياخنا رضى ربنا عنهم وأرضاهم .

بعد هذا كله ، أقرأوا للمتعة ، للسحر . إن كان لايعنيكم الذى أقول . أسلموا وجدانكم للحكاية . وأغفروا لى هذه المشقة التى تجدونها فى قراءة تقديمى هذا لأني عامد . صعب العلا فى الصعب ، ياشـــباب .

جمال محمد أحمد
الخرطوم ١٧/١٠/٦٨

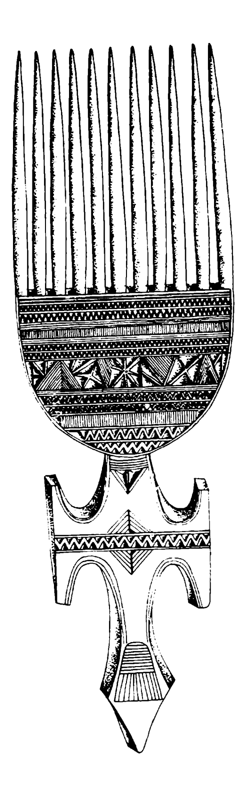
سالى فوحمر

وحكايات أخرى
من أفريقيا



الصومال

العروس والخطاب الثلاثة



الصومال

إخترت لك من الصومال قصة « العروس والخطاب الثلاثة » إخترتها عن عمد لأنها تمثل ذكاء الصومال ، الذى تلمحه فى العيون المتوهجة ، توهج الصحراء حولها ، من كل شق .

تراها من أى جهة قدمتها ، وقد أحاطت بها الصحراء ، تمتد حولها رمال تعشى العين حين تتبعها من الطائرة ، تظهر لك من حين لحين واحة يستريح عندها النظر ، أو منازل بدو حول بئر يسقون منهاالإبل،ويحملون مايحملون لخيامهم المتناثرة حولها العشب. ولولا نهر شبلى حيث تجرى أحداث قصتنا،لما كانت هذه البلاد ، فمن مياهه يزرعون الموز فى الحقول ، طويلة عريضة ، هى مصدر العيش الأول هناك ، يزاحمه مصنع اللحوم على الشاطىء تماماً كالنيل لو لم يكن لما كان واديه .

يذكر الصوماليون السودان بحنين ، وود خالص كثير ، لأن عدداً من شبابهم الذى ولى الأمر بعد إستقلال الجمهورية بشقيها زامل فى الدراسة كثيراً منا فى كلية غردون على عهدها ، وفى معهد التربية فى بخت الرضا ، وفى مدارسنا الثانوية، وكانوا مثلاً للشباب ، جماله فى قوته وإعتداده بنفسه . إن سرت ذات مساء فى شارع من شوارع مقديشو عاصمة الجمهورية المتطلعة ، لرأيتهم جماعات جماعات، هاربين من حر الصحراء «وبحر» المحيط ، وهو جو لايعدله جو إلا جونا نحن فى صيف بورتسودان .

وكلهم طويل القامة ، نحيف فى غير هزال ، وفى عيونه فتوة وفى صوته رقة ، وما أدرى أى شىء هذا الذى جعل من نسائهم أجمل نساء القارة ، ومن شبابهم أقوى شبابه . لعله الخليط الذى تجمع فى الدم الصومالى ، على مدى القرون ، فهم لموقعهم على المحيط الهندى ، الذى كان يوماً من الأيام، أكثر المحيطات إزدحاماً بالتجارة عرف الأقليم أناساً من كل نوع ، عرف العرب مثلاً ، حتى يقول الرحالة إبن بطوطه، إن كلمة مقديشيو تعنى فى الحقيقة « مقعد الشاه »

وماحرفت هكذا إلالصعوبة المخارج العربية على السكان الأصليين ، وأكثرهم ينتمون «للقالا» — قبائل ذات بأس تنتشر هناك — وفى أثيوبيا المعاصرة ، وتعرف على الإقليم أعداد من الفرس والهنود وغيرهم من الشعوب ، وهو إقليم تختلط فيه الحقيقة كثيراً بالخيال والأسطورة ، كما هى الحال فى تلك المنطقة .

يقولون عن «القالا» مثلاً إن إسمهم لم يكن كذلك، حتى إلتقى زعماؤهم بجماعة من التجار المسلمين قال لهم هؤلاء : « تعالوا نعلمكم أصول ديننا الحنيف ، لتكونوا إخوة لنا مسلمين » قال الزعماء « كلا » وحرفت «كلا» هذه التى رواها المسلمون عن هؤلاء الزعماء وأصبحت قالا ، وأسموا أنفسهم كذلك القالا — الذين قالوا كلا . قصة طريفة ولكنها واحدة من إخوات لها كثيرات ، يولع بها أهل هذا الشطر من أفريقيا .

وقصة العروس والخطاب الثلاثة تمثل لك الخلق الصومالى فى نواحيه الكثيرة . بأسه وجماله ، وميله الطبيعى للغناء والرقص ، وتمثل قبل كل هذا ذكاءهم الذى يرى وراء الظواهر ، فالحق لايمكن أن يكون كله فى جهة واحدة ، والخيار بين الأشياء أصعب شىء ، يكاد يستحيل أحياناً ، ولو كان سهلاً يسيراً ، لإتصف الإنسان بالكمال ، وهو فى الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك « كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه » .

وأنا أحثك على قراءة هذه القصة ، وقراءة غيرها من قصص الصومال ، فأهل تلك البلاد يحبون سوداننا . ويتتبعون تقدمنا الإقتصادى والسياسى ، بشوق ينم عن وفاء وود . ولن يخطىء الزائر العابر هذه الظاهرة ، وإن قضى هناك ليلة واحدة ، عليه أن يدير مفتاح الراديو فقط ليسمع ألحاننا العذبة ، يغنى عليها الفنانون الصوماليون ، وليسمع حتى كلمات أغانينا مترجمة لتلك اللغة ، وإن دخل البيوت وجد تسجيلات سيد ووردى والكابلى وإبن البادية وابراهيم ، وغير هؤلاء من قادة الفن المعاصر والغناء عندنا.سيجدها فى المكان الأول مما يقتنى الشباب من تسجيلات . قال لى صديق أثير وهو يعلق لى على هذه الظاهرة .«لم تنته اللجنة البرلمانية التى عهد إليها باختيار لغة لبلادنا وحروف ، وأكبر الظن أننا سننتهى

إلى اللغة العربية ، قبل أن ينتهى هؤلاء من جدالهم ، لا بفضل الشباب الذى يدرس فى البلاد العربية ، ولكن بفضل هؤلاء الفنانين الذين جعلوا العربية مدخلاً لمتعة روحية عظيمة فى بلادى».

لن أعتذر عن المقدمة العاطفية للعروس . . . والخطاب الثلاثة ، لأني متحيز للصومال ، وأقدر رجالهم ورائدهم «شارماركى» رحمه الله الذى لقيته لقاءً عابراً ، وسرني شـــبابه الثائر فى هدوء ، القادر فى غير صخب . وكل أهل الصومال قريبون للنفس ، رجالهم رماح ، ونساؤهم صيد .





العروس والخطاب الثلاثة

«افقوى» قرية صغيرة ، تبعد نحو ثمانين ميلا من مقديشو ، عاصمة الصومال ويخترقها نهر شبلى ، الذى يزرع على شاطئيه الناس ، أحسن موز فى القارة الأفريقية .

وهى لذلك قرية خضراء حلوة وقصتنا هذه تقع جوادثها ، فى وادى شبلى لأن الفتاة الجميلة بطلة القصة كانت تعيش هناك مع والديها ، قرب مزرعتهم . عاشت البطلة فى الهواء الطلق تعمل مع والدها فى حقول الموز ومع والدتها فى إعداد الطعام ، واكتسبت خضرة جميلة إلى لونها ، وطولا يعرفه كل الذين زاروا تلك البلاد ، أو دخلوا المدارس فى السودان مع الصبيان ، الذين كانوا يأتون كثيراً من هناك للدراسة فى مدارسنا ويأتون قليلا هذه الأيام .

تقدم لزواج هذه الفتاة الطويلة الخضراء ثلاثة شبان ، كان كل واحد منهم من أسرة طيبة وغنية ، وكان كل واحد منهم يحبها .. إمتلأ قلب الأب سعادة لأن إبنته حلوة يطلبها الشبان ، ولكنه كان حزيناً أيضاً ، لأنه لم يعرف من يختار منهم ، وكلهم أكفاء ، والصوماليون يشبهون السودانيين ، فى عاداتهم . يفكرون كثيراً قبل أن يختاروا الشاب الذى سيدخل بيوتهم ليكون واحداً من الأسرة ، وهم أيضاً قوم كرام يكرهون أن يغضبوا أحداً ، إلا إذا كان هذا لامفر منه . لايعتدون إلا إذا أعتدى عليهم .

الشاهد ، قل نوم الرجل الفاضل ، لأنه لم يعرف كيف يختار واحداً من الثلاثة دون أن يغضب الإثنين الآخرين ، وزاد من تعبه أن الآباء الثلاثة ، كانوا يأتون بيته كل يوم ، يطلبون منه أن يقدر ويختار واحداً من الثلاثة وهو يقول :

— « العجلة من الشيطان ». « فى التأنى السلامة » .

وذهب فى يوم من الأيام لرجل عاقل فى القرية يدرس القرآن فى الخلوة ، لأن الصوماليين مثلنا مسلمون ، ولكن الشيخ لم يستطع أن يساعده.

قرأ كتبه الصفراء كلها وقال له «والله لاأجد شيئاً فى هذه الكتب يحل هذه المشكلة».

وهكذا كان هـذا الشيخ مثل الأب يخاف أن يختار واحداً من الشباب فيغضب الآخرين.

وأخيراً قرر الأب أن يعطى إبنته لأمهر شاب من الثلاثة ، وطلب إلى ثلاثة عقلاء فى القرية ، أن يحكموا ، ولما سأله الشبان .
– أى مهارة تلك التى تريد ؟ .
قال : « أنا لاأقترح شيئاً ، وأترك لكل واحد منكم أن يختار ميدان بطولته»
قالوا : « ها أنت عظيم » .

كان كل واحد منهم واثقاً من نفسه ، وكان أول هؤلاء الشبان قوياً ، ولاهرقل ، حمل رجلين على كتفه ،واحداً منهما على كتفه اليسرى، والآخر على كتفه اليمنى ، ودخل النهر ، نهر شبلى الذى ينحدر إنحداراً شديداً من جهة الحبشة، وعام حتى وصل بهما سالماً الشاطىء الآخر،ولما وصل صفق له الناس ، وزغردت له النساء من أهله ، أما الثانى فقد كان ماهراً فى الصيد حربته لاتخطئ ، وإذا ضرب بالبندقية ذهبت الرصاصة لقلب الهدف ، ولما إجتمع أهل القرية فى الساحة الكبرى ضرب بحربته مسواكاً فى خشم أحد الواقفين ، وقال واحد من هؤلاء بصوت عال . « هاك » ورمى بقطعة من النقود أمامه ، ولكن الشاب الماهر ، ضرب التعريفة قبل أن تمس الأرض وقدها . صفق الحاضرون لهذه المهارة وزغردت أخته ، وكذلك صديقاتها زغردن معها لأنها كانت تريد أن تؤثر على قلــوب الرجـــال، والزغاريد لذيذة فعلا تؤثر ، تهز .

أما الشاب الثالث فقد كان رجلا جميلا لاتتحرك عنه عيون النساء . كان مستدير الوجه كالبدر وممشوق القامة . لم يكن الجمال فى شكله فقط . كان يغنى فتقف الطيور تسمع ، ويضرب القيثارة فتقف أوراق الشجر لاتتحرك ، والوحوش الكاسرة فى الصحراء لاتصرخ ، تريد أن تسمع الصوت الجميل والألحان الرقيقة ، ولما ضرب القيثارة وغنى سكت كل الناس ، وتصلبوا فى مكانهم ، لايتنفسون، وتنهدت كل فتاة فى الجمع ،

والقت الخمار عن وجهها ناسية كل شئ . . . وامتلأت قلوب الشباب حسداً، وقلوب البنات بهجة .

ولما أنتهى العرض دخل الحكام الثلاثة قرب الساحة الكبرى ليحكموا بعد التشاور ، وكان حكماً عادلا ، لايمكنك غيره إن كنت واحداً من الشيوخ . قال الأول :

– « الشاب الأول أقوى من وقعت عيوننا عليه » .

قال الشيخ الثانى :

– « الشاب الثانى لم أرضرباً ضربه ولم أسمع بلاعب رمح مثله . »

قال الشيخ الثالث :

– « الشاب الثالث هو سيد من غنى وسيد من لعب القيثارة » .

كل هذا كان صحيحاً ولكن لايساعد الأب على اختيار زوج لأبنته، إذن لم ينه العقلاء المشكلة . بقيت كماهى – من يتزوج الفتاة ؟ ومرت الأيام والأب ساكت لايتكلم، والآباء يأتون كل يوم يسألون، ونصب كل واحد من الثلاثة خيمة على النهر وأبى أن يرجع لبيته إلى أن ينطق الأب ، وكان هذا صعباً على الآباء ، لأن أعمالهم وقفت ومزارعهم خسرت ، لأن الأولاد لايشتغلون، وإبلهم ضعفت لأن الأولاد لم يأخذوها للرعى، والأمهات فى البيت كن مشكلة أخرى ، يقلن للآباء إننا نريد أولادنا فى البيوت .

* * *

فى يوم من الأيام ذهبت البنت إلى النهر لتملأ الجرة التى تحمل بها الماء إلى البيت ، وإنزلقت فى الطين ووقعت فى البحر ، وفجأة ظهر تمساح يعوم نحوها ، يريد أن يبتلعها. ورأى الشبان الثلاثة هذا المنظر ، بأعينهم ، فقد كانوا قريبين من النهر ، أمام الخيام التى نصبوها لأنفسهم .

وبسرعة أمسك الموسيقى قيثارته وجعل يضرب عليها أنغاماً غريبة ، وطرب لها التمساح ، ونسى الفريسة، وجعل يرقص فى الماء طرباً. وأمسك الضراب ببندقيته ، وضرب التمساح ضربة واحدة، قضت عليه وهو يرقص، وقفز الشاب القوى ودخل الماء كالسبع ، وحمل الفتاة على ظهره وعاد بها للشاطئ . ثم حملها على ظهره وذهب لبيت أبيها ووراءه الشابان الآخران ، وإجتمع الناس يسألون كيف حال الفتاة . مغمى عليها، ترتعد من البرد

والخوف . وساعدوها بالدلك واللبن الساخن فعادت إليها الحياة ، وفتحت عينيها تنظر حولها وتتحرك ، فبدأ فى هذه اللحظة جدال شديد بين الشبان الثلاثة ، كل واحد يقول :

« أنا السبب فى نجاتها وحياتها .»

قال الموسيقى وهو يشرح قضيته :

« أنا أحق بالزواج منكما لأنى كنت أول واحد فكر فى عمل شئ ينقذ حياتها من التمساح . أنا الذى سحرت التمساح ، ولولا سحرى هذا ، لضاعت جهودكما سدى دون فائدة » .

وصرخ الصياد وهو يحاول :

« عبث . كلام فارغ . كل الذى عملته أنك أخرت التمساح لحظة ، وفى تلك اللحظة التى التفت فيها ليرى مصدر الصوت ، قتلته أنا ، قتلته بالبندقية ، ولذلك أنا أحق منكما بالزواج » .

وما استطاع الرجل القوى أن ينتظر فصاح فيهما يقول :

«هذا خطأ ، أنتما تتكلمان كلاماً فارغاً ، نسيتما أن التمساح لم يكن الخطر الوحيد على حياتها . نسيتما أن النهر كان هو الخطر الأكبر . أنا الذى أنقذتها من الغرق ، وأنا الذى خاطرت بحياتى ، من أجلها . لم أكن واقفاً على الشاطئ كما فعلتما لا . . لا . . يجب أن يأخذ العدل مجراه يجب أن أتزوج الفتاة » .

* * *

وهنا سكت الأخ الذى قص على هذه القصة لما قابلته فى أفقوى وسألنى: مارأيك فى هذه القصة .

قلت : بسيطة ولكن كيف إنتهت ؟ .

فضحك طويلا وقال :

« لا أعرف. إن هذه القصة فيما أظن تشبه الحياة فى أنها لاتنتهى نهاية مقبولة محبوكة . الحياة مشاكلها مستمرة لانهاية لها ، واحدة تعود لأختها . »

قلت له :

« يا أخى هذه حكاية لطيفة أخبرنى كيف إنتهت . وأترك الفلسفة لأنى رجل أحب القصص ، مثل كل الناس، ولا أهتم بالفلسفة . كل قصة لها أول ووسط وآخر . »

فقـال :

« حاضر ، إن كان لابد من نهاية فإليك نهاية. »

ومضى يقـول :

لما اختلف الشبان ذهبوا للعقلاء الثلاثـة ، وجلسـوا ثم سألوا العاقل الأول ، فقـال :

« إن أحق واحد بالزواج هو الموسيقار. »

أما العاقل الثانى فهز رأسه وقال :

« أنا اعترض . أحق الشبان بالزواج من الفتاة هو الضراب . »

فضرب العاقل الثالث جنبه وقال :

« إنى لاأوافقكما ، أجدر الشبان الثلاثة بالزواج هو الفتى القـوى الذى حملها على ظهره فى الماء . »

* * *

وسكت الأخ مرة ثانية فقلت له :

« إنك تسخر منى مرة ثانية . نسيت نهاية هذه القصة ، وخير لى ولك أن تقول إنك نسيت وينتهى الأمر عند هذا الحد . » قال الأخ ـ وأعتدلت أستمع « سأحكى لك نهاية غير هذه النهاية حتى لاتغضب .»

فسررت ثم قلت له :

«قل لى يا أخى لقـد شـوقتنا » فقال متمماً القصة :

لما إحتار الأب ولم يعرف ماذا يعمل ترك الأمر لإبنته وقال لها :

«أنت التى ستتزوجين لا أنا فعليك أن تختارى .» ثم سكت صديقى قليلا وأضاف « ومن ذلك الزمن تختار كل بنت زوجها » .

قلت له : « هـذه نهاية مناسبة ، ولكنها غير حقيقيـة فى هـذا الكلام. »

قلت له بإلحاح :

« يا أخى لم تنته الحكاية . . . كيف إختارت البنت ؟ ومن إختارت من الشبان الثلاثـة . لاتقل لى إنها إختارت الذى يناسبها ، قل لى من تزوجت ؟ »

فضحك الأخ مـن ضـيقى وقال :

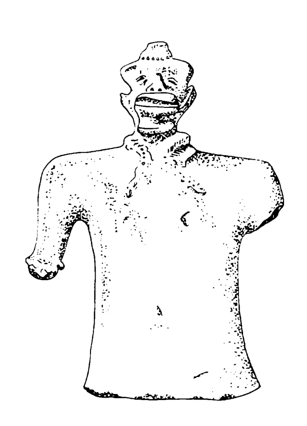
«لم تستطع أن تختار «إحتارت» هذه نهاية تناسبنى أنا وتناسب مزاجى، لأنى أرى فيها شيئاً من الحقيقة.»

فقلت له: «أنت ملعون لأنك لاتريد أن تخبرنى أو تريدأن تتفلسف، لاتحكى حكاية. لقد رجعت بنا إلى حديث إبتدأنا به.»

قال: «كما ترى على كيفك. أنا ذاهب لأن الشمس بدأت فى المغيب، ولابد أن أذهب لإبلى لترجع معى. أما نهاية القصة ففتش عليها أنت أبحث عنها وحدك» وذهب.

شـــــاد

الهـدايـا السـحـرية





شـــاد

« الهدايا السحرية » حكاية من شاد ، وشاد إقليم يعرفه أهل الغرب عندنا كثيراً . إذ قل من تجارهم من لم يبع ويشترى مرة فى فورتلامى ، ميناؤها الجوى قرب حدودنا الغربية ، وقل من لم يذهب مرة لسوقها التجارية الكبيرة ، وتشدنا لهذه البلاد القديمة ، كما تشدنا لكثير غيرها من بلاد أفريقيا وحدة الدين ، فأكثر أهل شاد مسلمون ، يعيشون فى حوافى صحاريها العريضة ، قرب نهرها الكبير شارى ، وتعيش قلة مسيحية شرق هذا النهر ، مصدر الحياة والخضرة للناس . وقصتنا « الهدايا السحرية » تدور حوادثها بعض الوقت على شاطىء الشارى ، نيل تلك البلاد الواسعة .

وليس الدين وحده هو الذى يربطنا بشاد ، بيننا وبينهم رحم ، وفى كثير من قرانا ومدننا عدد من أهل شاد ، يعيشون عندنا كما لو كانوا أهل بلد ، ويعيش فى شاد تجار من السودان عددهم كبير ، وأهل شاد أنفسهم يقولون إن أسلافهم نزحوا إليها من النيل فى وقت بعيد ، وتشير أساطيرهم الى الأجداد ، فتقول عنهم إنهم « عمالقة أتوا من الشـــرق » وكانت شاد مملكة من ممالك الإسلام فى السودان الغربي ، وهى البلاد التى تمتد بين النيل والمحيط فى عرف المؤرخين العرب . كان إسم المملكة « كانم » ولعبت هـــذه المملكة دوراً فى تاريخ أفريقيا خبا واندثر ، وحين إمتد ظل أوروبا على القارة فى أواخر القرن الماضى ، إمتدت تجارتها للشرق فى سوداننا نحن ، وللشمال فى ليبيا ، والكمرون صوب الجنوب ، ووقفت تنافح عن نفسها ضد أوروبا ، على نحو يثير الدهشة ، وهنا ينبغى أن نذكر واحداً من أبطالنا ، كان صخرة فى وجه البغاة ، وإن كان لايذكره الناس كثيراً هذه الأيام .

يذكره المؤرخون الأوربيون ، ويرمونه بكل قبيحة ، يقولون « تاجر رقيق ، مغامر ، متعصب دينى » إلى آخر ماتقول كتب الفرنجة ، عن المجاهد « رابح ود فضل الله » ولم يكن إلافارساً يغيظ الأعـــداء . ولو لم تقتله يد البغى الفرنسية ، لبقيت بيننا وبين شاد صلات رحم

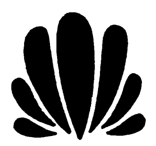
ودين وإقتصاد. تقوى على الأيام وتزدهر. ولو بقى لكانت بلادنا بلاداً واحدة . لقد لقيت أوروبا على يديه فى شاد ما لقيت من الممالك الإسلامية الأخرى بقيادة المجاهدين دان فوديو ، وحماد ، وبارى . والحاج عمر تال ، وغير هؤلاء من رجال ذلك الإقليم ، ويخيل إلينا أن مؤرخاً سودانياً سيكتب عن رابح فى يوم من الأيام . فليس من العدل ألا نعرف عنه إلاهذا القليل الذى نعرفه من كتب الفرنجة ، وبعيد أن يرى فيه الفرنجة البطل الذى نراه .

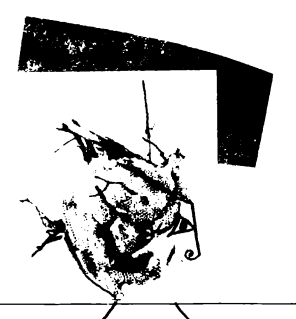
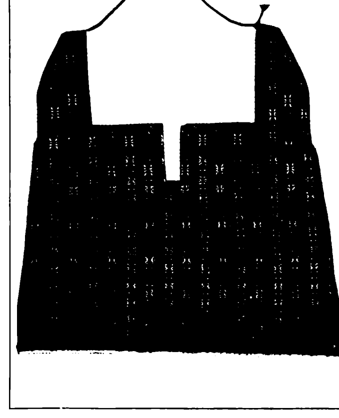
لو لم يكن من أولى البأس والحكمة . لما سعى الإمام المهدى « أعظم السعى على رابح الزبير » كما تقول رواية،ولصق به هذا الإسم الزبير لأن رابحاً كان واحداً من رجال الزبير ، ظل مخلصاً له ولإبنه سليمان من بعده ، حتى وقع هذا فى الشراك التى نصبت له . ورأى رابح ملامح الغدر ، وأبى الصلح الذى عرضه « جسى » على « سليمان » ، وقاد من إختار أن يكون معه من الرجال واتجه غرباً حتى إستقر عند نهر شارى فى شاد ، وأسس هناك عاصمتها «دكو» على النهر . « واشتهر بالعدل والصرامة وأعاد بأس كانم » .

يقول المؤرخ إن الإمام المهدى كتب له مراراً ليلحق به، ولكنه كان قد توغل فى الغرب متخذاً «المهدية شعاراً، وراية المهدية راية» وتمكن من فتح مملكة برنو. ثم مضى الإمام وتولى الأمر بعده الخليفة عبد الله ، وكتب له عدة مرات يرجوه أن يعود . ومن هذه الكتب رسالة طويلة من الخليفة لرابح يشرح فيها الآراء والعواطف التى دفعت بالإمام للثورة ، يدعوه دعوة حارة لنصرتها . كما يفعل أصدقاؤه النور والزاكى وحمدان ، وكان لرابح بهم كلهم صلات يقول له الخليفة فيما يقول « إن بادرت إلينا يكون لك مالهم » . ويتودد إليه تودداً فيقول « إنك منا على بال كبير » ولكن رابحاً كان عن كل هذا فى شغل . كان يعيش قدراً آخر .

كان يحمل السلاح والرجال من طرابلس وبنغازى ويحض الأهلين فى عاصمته ليقفوا فى وجه أوروبا الزاحفة ، وكانت أكثر عدداً وأقوى عدة . ولم يثنه هذا عن القتال حتى وقع فى الميدان عام ١٩٠٠ ووقع معه قائد القوات الفرنسية الكونت «لامى». واقتسم الفرنسيون والإنجليز والألمان ملكه من بعده. واتجهت شاد بعد ذلك

جهة غير جهتنا . ولم تعد تبحث عن قديمها ، إلا منذ سنين حين عاد لها إستقلالها من فرنسا ، وقصة « الهدايا السحرية » التى يقصها الأهلون هناك حتى يومنا هذا . إشارة الى الأسلوب القصصى عندهم وهو لايختلف عن أسلوبنا . ولا أعرف رابطة أقوى بين الناس من رابطة الروح . التى تعبر عن نفسها بالشعر والقصص والأساطير .



الهدايا السحرية

هذه حكاية قديمة حصلت فى « شاد » حكاها لى قريب لنا كان يسافر إليها على الجمال « أيام زمان » يبيع ويشترى هناك .

وبطل القصة إسمه « الأمين » وكان شاباً يحب عمله كثيراً ، ونجح فيه واشترى عدداً من المراكب الشراعية . تنقل البضائع والناس ، على نهر « شارى » وبنى عدداً من البيوت فى سوق فورت لامى ، كان يؤجرها للتجار ويربح مالا كثيراً منها . وإشتهر إسمه فى كل مكان فى شاد ، حتى بين القبائل فى البادية . لأن « الأمين » كان يرسل وكلاءه هناك ، يشترون المحاصيل من المزارعين والبهائم من أصحاب الماشية .

وكان وكلاؤه يربحون قليلا . لأن « الأمين » كان هو صاحب المال ، يأخذ أكثر الربح ، ولاسيما وقد كانت مراكبه هى التى تحمل المحاصيل للمدن من القرى التى يزرع فيها . كما كانت تحمل البهائم للمدن التى لاتربى البقر أو الماشية لأنها تعمل فى التجارة والصناعة .

وكلما كثر مال « الأمين » كبر عقله . وكانت القبائل تجئ وتطلب منه المساعدة إذا وقع بينهم خلاف فى المرعى أو فى الماء ، وكانوا يسمعون كلامه . لأنه كان رجلا حازماً . يعاقب الذى لايسمع الكلام ولايشترى من ماشيته . وأحياناً كان يضرب القبيلة التى تكدر صفو القبائل الأخرى لأنه كان يملك سلاحاً كثيراً . يشتريه من السوق ، وكان رجاله لايسألونه ، وإذا قال لهم « أضربوا القبيلة الفلانية » . يضربون بلا تردد . يطيعون.

كان « الأمين » عاقلا وقوياً . وهذا حظ كبير لأن الإنسان العاقل يستفيد من عقله وإن الإنسان القوى بلا عقل يجد نفسه أحياناً فى تعب وأذى شديد. ولايجمع بين القوة والحكمة إلا من أوتى حظاً عظيماً ، أو تعليماً ذكياً.

ولكن كل ذى نعمة محسود . . حسده السلطان ، وكان يعيش فى قصر كبير على الضفة الأخرى من النهر فى بلدة إسمها « قلقى» ولولا صبر «الأمين» وعقله ، لوقعت بينه وبين هذا السلطان حرب تؤذى الإثنين ، وأنصار الإثنين ولكن أنظر إلى ماحدث :

كان للسلطان بنت جميلة جمال الزهور فى البستان . وكانت لذلك حديث الشباب فى البلاد ، وكان اسمها « غادة» ، يحلم كل شاب فى البلد ، أن يصير يوماً من الأيام زوجاً لها ، لاليكون نسيب السلطان ، بل ليعيش مع هذه الوردة السوداء . وردة سوداء ؟ كان كل واحد منهم يحلم بأن يجمع مالا كثيراً ، ويبنى بيتاً جميلا ، فيكسب إحترام السلطان ، فالناس لايحبون الفقراء ، والسلاطين لايعطون بناتهم لكل واحد . أكثر الناس حمقى وأكثر السلاطين دواب .

كان كل واحد من هؤلاء الشبان ، يعمل كل شئ وفى باله الأميرة الحلوة . إذا إشترى ملابس من السوق قال لنفسه :

« هل ترضى هذه الملابس الأميرة « غادة » ياترى ؟.»

وإذا تكلم مع إخوانه تكلم بحساب . بألفاظ مهذبة لأن الأميرة لايمكن لها أن تتزوج جلفاً، ويذهب أحياناً للمرآة ينظر لوجهه فيها. ويقلب خده. هنا وهناك لأن الأميرة لن تتزوج إلارجلا قوياً لطيفاً ، وإذا ذهب لمنزله أخرج العلبة التى يوفر فيها نقوده ، ليرى كم جمع من مال . فإن الأميرة غادة تحتاج لمال كثير . وهكذا كانت غادة تشغل بال كل شاب وتؤثر فى أعماله ، وفى تفكيره .

أما « الأمين » فلم يتعب نفسه كثيراً . كان مثله مثل كل شاب . يريد أن يتزوج هذه الأميرة الفاتنة ، ولكنه كان غنياً ، وكان صاحب نفوذ حتى على صغر سنه ، يخافه الناس . إما لأنهم يريدون أن يستدينوا منه . وإما لأنه سيضربهم إن وقع بينه وبينهم شئ ،وكان جميلا قوياً، لايخشى أن ترفض يده الأميرة ، وكان مهذباً لأنه سافر كثيراً ، وقابل ناساً كثيرين . وتعلم كيف يعاشر الناس وعنده كل شئ .

وحصل ماكان يتوقعه كل الشباب . طلب السلطان مهراً كبيراً لإبنته الأميرة غادة ، فما أمكن لواحد منهم ، أن يفكر فى يدها الغالية . ولكن « الأمين » ذهب . كان واثقاً من ماله وجماله ، ومكانته بين الناس . وطمع السلطان حين رآه . وزاد فى المهر الذى أعلنه ، فعرف « الأمين » ما فى نفس السلطان . وكان كما قلت لك شجاعاً . إذا أراد شيئاً سعى اليه. وتعب .مهما كان الأمر . قال لنفسه :

« أنا أدفع كل مالى ، ولاأترك الأميرة غادة. عيب، ماذا يقول الناس عنى ؟ جبان ؟ لايمكن أن أحب المال أكثر مما أحب كرامتى . أنا الذى صنعت المال . إذا فقدته مرة صنعته مرة ثانية ، لأنى حي ، ولكن إذا فقدت كبريائى ، صرت مسكيناً لايحترمنى أحد ، لايمكن أن أشترى الكرامة من السوق. أنا سأتزوج هذه الأميرة مهما كانت التضحية المالية . »

وتكلم مع وكيل السلطان فرأى قبولا منه، ولكنه فهم أن المهر كبير قد لايقدر هو عليه أيضاً ولكنه لم يقبل الهزيمة ، وباع الأمين عددا من مراكبه لييسر المال ، وباع عدداً من دكاكينه كذلك ، وكلما قال له أصحابه :

« أنت مجنون »

قال لهم :

« هذا كلام جاهل . أنا أستطيع أن أعمل المال ، ولكنى لا أستطيع أن أعمل الجمال » .

ويقولون له : «ولماذا التعب؟ فى المدينة بنات جميلات . »

فيقول لهم :

« الحب الصادق النظيف لايمكن أن نشتريه بالمال ، أما الدكاكين والمراكب فيمكن أن يشتريها الواحد بالمال . »

ولكنه كان مشغول البال وهو يقول هذا الكلام ، لأصحابه ، الذين أصبحوا يلومونه ، لأن السلطان لم يرد عليه . أخذ السلطان المال وسكت ولم يقل شيئاً، وطالت المدة . فذهب الأمين يسأل الوزير :

« ماذا حصل ؟ متى أتزوج ؟ . »

قال له الوزير :

« لاتستعجل يابنى . كل شىء فى أوانه . »

ومر وقت طويل ولم يجئ هذا الأوان الذى تحدث عنه الوزير ، فقال له الأمين : « لابد أن أقابل السلطان نفسه ، لأسأله رأيه. »

ورتب له الوزير مع السلطان ميعاداً ، وذهب وقال له :

« أيها السلطان لقد دفعت المال لأتزوج الأميرة غادة ، منذ شهور ،

وإنتظرت وتعبت من الإنتظار ، ووقف عملى لأنى لاأستطيع العمل ، أفكر فى الأميرة وفى الزواج . أرجو أن تأمر بالزواج لأنصرف لأعمالى . »

وهنا قال السلطان كلاماً غريباً لم يخطر ببال الأمين . لأنه كلام لايليق بالسلاطين . قال السلطان : « أنا حزين من أجلك يابنى لأنى لن أعطيك غادة التى طلب يدها منى أحد أفراد الأسرة . وحزين من أجلك أيضاً ، لأن المهر الذى دفعته لن يرجع لك . وهذه عادتنا لانرد المهر أبداً . »

لم يعرف « الأمين » ماذا يقول وقد فقد الأميرة وفقد المال . ضربتان فى دقيقة واحدة ، وخرج من عند السلطان حتى دون أن يستأذنه ، أصابه الألم لأن الألم من سلوك السلطان أنساه الآداب المرعية .

وجلس « الأمين » فى بيته أياماً ، وهو لايعرف كيف يفكر ، ولايجد الرغبة فى الإشراف على أعماله .

كان مغلوباً على أمره ، كسير الخاطر ، يقوم ويقعد فى أركان بيته من ظل إلى ظل ، وينام قليلا أول الليل ، ثم يصحو ويمشى داخل الفناء ، ومع الفجر ، ينام قليلا وقد تعب جسمه من السهر ، وأتعبه أكثر أنه كان متكبراً لايجد واحداً من أصحابه يتكلم معه ، ينفس عن روحه . كانت جدته العجوز الشخص الوحيد الذى يعرف الموضوع . وكانت تقول له كلاماً طيباً لينسى الأميرة ، وينصرف لأعماله الواسعة ، ويبحث عن فتاة أخرى ، فالدنيا بخير والبنات كثيرات . ولكنها فشلت فى تعزيته فقالت له يوماً من الأيام :
« لقد نحل جسمك يابنى من السهر والتفكير والإنصراف عن الأكل . »
ثم سألته :

« مافائدة هذا الذى تعمله ؟ إنك تضعف جسمك بالسهر ، وعقلك بالتفكير ، الذى لايؤدى إلى شىء ، وفى النهاية لن تجد نفسك قادراً على التغلب على هذا الرجل الذى أخذ مالك واحتفظ بإبنته ، وينبغى أن تكون قوياً لتصل إلى ما تريد . »

وفتح « الأمين » عينيه الواسعتين وقال لها :
« والله أنت على حق . لابد من عمل شىء . » وردت اليه روحه قليلا ،

وأكل ذلك المساء وشرب وتمدد على فراشه يقلب الأمر وصدى صوت جدته يجئ فى باله يقول مرة ثانية :

« ينبغى أن تكون قوياً لتصل إلى ماتريد . » وهو يفكر ويقول فى نفسه: « كيف ؟ » . وينقلب على جنبه الآخر فى السرير .

وفى الصباح الباكر دخلت عليه جدته . وكان قد صحا باكراً . وجلس على طرف سريره يحمل رأسه بين كفيه ، وأمسكت بركبته النحيلة ذات العروق الكثيرة الخضراء . فإعتدل الأمين ، وأمسك ذراعيها بيديه ،فوضعت عينيها المليئتين بالدموع التى تسيل على خديها ، على عينيه هو وقالت له :

« أسمع ياولدى ، وأسمع جيداً . أنا أعرف الدنيا أكثر منك . لأنى عشت فيها كثيراً ، وعاشرت فيها أنواعاً من الناس . أعرف طباعهم كلهم ، لأنى كنت مفتوحة العين . أسأل نفسى دائماً لماذا عمل فلان هذا ، ولماذا لم يفعل فلان هذا ، دائماً كنت أرقب أعمال الناس وخرجت بدروس كثيرة منها أن الإنسان لايمكن أن يكون حكيماً عاقلا إلا إذا قطع الطريق الطويل من الغنى إلى الفقر . ومن النعيم إلى البؤس . ولايقدر الواحد أن يمشى فى هذا الطريق ، إذا كان ضعيفاً ، رجوله من طين ، أو جباناً . أو يجلس يحزن على نفسه » .

وهز « الأمين » رأسه يوافق على كلامها . فقالت له :

« هل فهمت كلامى ؟ ».

قال : « نعم ، نعم. »

كان يضحك ويهز رأسه . يضحك ضحكة القهر طبعاً .

وهنا شرعت الجدة الطيبة الحنونة ، تفك صرة كبيرة . داخل ثوبها وأخرجت صرة أخرى من هذه ، وأخرجت منها علبة قديمة ، ثم وضعت سبابتها والإبهام فى العلبة وأخرجت من هذه العلبة طاقية صغيرة ، ذات ألوان لطيفة . وقدمتها إلى الأمين وهى تقول :

« قل بسم الله . خذ هذه الهدية المتواضعة من جدتك . »

وكان الأمين ينظر إليها طول الوقت وهى تعمل هذه العملية بيدها المرتجفة وكان ينسى حزنه وهو يمسك بطنه من كثرة الضحك ويقول لها :

« طاقية قديمة ياجدتى . »

ويقول لنفسه :

« خرفت المرأة والله ، طاقية قديمة ؟ ماذا أعمل بها ؟ .»

وعرفت جدته مافى باله ، فقالت له :

« لاتضحك على جدتك العجوز ياولدى . إن طاقيتى قديمة . وذهب لونها الأحمر الجميل مع الزمن وهى فى هذه العلبة داخل الصرة الصغيرة ، داخل أختها الكبيرة منذ ممات جدك . »

وخجل الأمين من نفسه ، فوقف على رجليه ، وقبل رأس جدته يعتذر من ضحكه ففرحت السيدة العجوز وقالت :

« أجلس وأسمع . هذه الطاقية فريدة فى نوعها ، لاشئ يشبهها . ما ترك أحد طاقية مثلها حين مات إلا جدك . »

وخجل الأمين مرة ثانية وقال لها :

« شكراً جدتى . كتر الله خيرك ، سأحتفظ بهذه الهدية طول عمرى .»

وهنا قالت له الجدة « لكنك لاتعرف شيئاً عن الطاقية بعد ، إن قيمتها أكبر كثيراً من مظهرها . إنها مسحورة ، إذا لبستها إختفيت عن أعين الناس ، لايراك أحد أبداً . وإذا طلبت بها أن تطير بك إلى مكان أخذتك إلى ذلك المكان فى غمضة عين مهما كان بعيداً ذلك المكان ، تطير بك طيراناً إلى المحل الذى تريده ، ولايراك إنسان . »

* * *

لم يصبر « الأمين » دقيقة بعد هذا الكلام. قام من سريره ولبس الطاقية ، ثم أمرها أن تأخذه إلى مقصورة الأميرة غادة فى قصر السلطان. وتحركت الطاقية المسحورة بين الحرس ، وطارت بين دهاليز الممر ، واستقرت فى مقصورة الأميرة الحلوة . فخلع الأمين الطاقية ، وإذا به وجهاً لوجه أمام الأميرة . لكنها لم تخف ولم تهتم ولم تتحرك من فوق كرسيها الذى كانت تجلس عليه .

قامت بأدب وإتزان وسلمت على « الأمين » . وكأنها تعرفه من سنين ، وقابلته أكثر من مرة . وأشارت بيدها إلى كرسى صغير جنب كرسيهاليجلس عليه الضيف فجلس . وهو يسأل نفسه :

– بسم الله الرحمن الرحيم . ماهذه الفتاة ؟ هل كانت فى إنتظارى ؟ ماهذه الحفاوة ؟ .

ودهش أكثر وأكثر حين سألته الأميرة عن حاله ، وحال جدته العجوز كما يفعل الناس الكبار مع الأولاد الصغار ، وسألته عن أعماله التجارية ، وهو يجيب على أسئلتها الكثيرة ، وهى تثرثر ولاتقول شيئاً يفيده ، ثم ناولته بيدها ماءً بارداً طيب الرائحة والطعم ، مبخراً منعنعاً فى كوز من الفضة ، مشغول مدور . وأقبل الأمين على الماء يشربه قطرة قطرة يتذوق حلاوته بين أسنانه ، وفى حلقه . وبعد لحظات من شربه ، وجد الكلام ثقيلا على لسانه وأحس بجسمه يضعف ويخدر . وذهل . وحاول أن يسأل فإذا الكلام يخرج من فمه مقطعاً ثم تقطعت الحروف حرفاً وراء الآخر . وصارت كصدى بعيد قادم من وراء جبل ، ورويداً رويداً نام . . . نام . . . ولم يبدأ الكلام عن قصة غرامه بها ، الغرام الذى أوقد النار فى قلبه . وتركه مفلساً لايملك شيئاً .

* *

ثم أفاق وفتح عينيه فاذا برجل يهزه هزاً عنيفاً من كتفه . وهو راقد فى طريق عامة متربة كصرة القى بها صاحبها على الأرض . وسأله الرجل الذى أيقظه عن أمره فأجاب . بأنه لايعرف من القى به هنا . ووقف على رجليه يتحسس جيوبه ، يبحث عن كنزه الثمين (الطاقية المسحورة) ولم يجدها ففهم . فهم وحزن أعمق الحزن . لقد وضعت له الأميرة شيئاً فى الماء الذى شربه ، فتخدر ونام وأمرت بخدمها فألقوا به فى قارعة الطريق ، ومشى بخطوات ثقيلة مترددة ، نحو بيته يفكر فيما يقوله لجدته ، ولكن وجد أحسن ملجأ فى صدرها الحنون وسمعت القصة من أولها إلى آخرها وقالت له :

« لافائدة من الحزن . ولامعنى للندم . صحيح كلنا يكره أن يغشه الناس ، ولكن الحزن يضعف الهمة ، والندم يضيع الوقت ، والواحد منا يجب أن يكون قوياً . كى يتغلب على كل شئ فى طريق النجاح . خذ . »

وانتبه الأمين . فوجد يدها ممدودة . وأخذ ماكان فيها . فاذا هى صرة أيضاً وفتحها ووجد فى داخلها كيساً من الجلد لطيف الصنع . وظن

أن الجدة العجوز . تريد أن تعزيه وتسرى عن خاطره الكسير . بأن تعطيه شيئاً من المال . قلب الكيس فى يده وقال لها بعد أن فحصه :

«شكراً عزيزتى ، إنه لطيف . »

وهم بوضعه على طرف الشباك ، فقالت له جدته :

«لا . لا . ابقه هنا . »

وأخذته منه وأمسكت بطرفه ، تلوح به فى وجهه وتقول له :

« هل رأيت هذا الكيس ؟ إنه مسحور إذا وضعت فيه قرشاً واحداً وتمنيت أن يصير القرش مائة صار . وإذا تمنيت أن يصير القرش الفاً صار . »

فرح « الأمين » بالهدية الثمينة . وهم أن يقبل يدها علامة شكره لها . فأبت العجوز ، وقالت: « لاتقبل يد أحد حتى أنا جدتك العجوز الحنون . نجاحك فى مسعاك هو جزائى ،فتوكل على الله ، وأمض فى سبيلك . لاتقبل يد أحد . كائناً من كان ، ولاتخلع حذاءك حين تدخل على أحد ، كما يفعل الناس هذه الأيام حين يركعون للكهنوت ويغضبون الله الواحد الذى لاشريك له . »

* * *

خرجت العجوز . وجرب الأمين الكيس حين خلا لنفسه ، فإذا هو يحول القطعة عشراً ، عشرين . كما يتمنى ، وابتهج لاحباً فى النقود بل أملا فى أن يصل لغايته ، فقد كان عارفاً ويقدر أن الفلوس بضاعة كغيرها . وظيفتها أن تشترى مايريد الواحد، لا أكثر ولا أقل. لذا لم يضع الأمين لحظة أسرع إلى القصر فى غفلة حراسه ، ووزع عليهم كل قرش يملك ، ففتحوا له كل باب ، وفتحوا معها أفواههم دهشة من هذا « الأحمق » الذى يصرف دون حساب ، وجرى كل واحدلأخيه ، يضحك على الأحمق ، ويده مملوءة بنقود لم تدخل جيبه مثلها أبداً . قال كبيرهم :

« الولد مسكين لقد أكل الحب عقله . »

فرد عليه زميله فى الحراسة ، يمد يده أيضا بنقوده ويقول :

« لكنه لايعرف أن السلطان شيطان مريد ومخادع . »

وصدق الحارس لقد كان يعرف سيده شيطاناً مريداً . ولم تختلف الأميرة عن أبيها .

ودخل « الأمين » مقصورة الأميرة ، بنقوده التى نثرها على الحراس . فاستقبلته الشقية الماكرة مسلمة عليه ، وأخذته من يده وعلى وجهها إبتسامة حزينة عطوفة . وذهل « الأمين » مرة ثانية وتساءل . أكانت فى إنتظاره ؟ كان طيب القلب . كغيره من أهل القلوب العامرة ، لايعرف المكر ولايعرف الخداع . المكر والخداع من أدوات الأغبياء . الأذكياء الطيبون يمضون فى سبيلهم ، كلهم ثقة فى أنفسهم . أما الأغبياء فيعيشون على الخداع والمكر .

جلس « الأمين » على الأريكة الكبيرة ، حين اشارت له . ورأى بقلبه الطيب وعينه الساذجة ، ضوءاً ونوراً . وجلس فى أدب ، ينتظرها تتكلم ، ولكنها لم تقل شيئاً . ووقفت الأميرة ، فوقف يعد نفسه لينصرف ، ولكن الأميرة أشارت أن يقعد ، فقعد ، ودخلت حجرة لصق مقصورتها وعادت تحمل قيثارة ففغر الأمين فاه حين رآها ، ووقفت أنفاسه ، يترقب وينتظر ، لكن الأميرة كانت عنه فى شغل . شرعت أناملها تلمس كل وتر فى القيثارة على حدة وأغمضت غادة عينيها ، وغابت . والأمين يطرق الأرض بقدميه ، يهز رأسه هنا وهناك ، لايعى من شدة الطرب ، وأغمض مثلها عينيه . وكل سلم فى القيثارة ، كانت نغماته تسرى فى دمه وروحه ، وفجأة صاح يرجو ويتوسل : « أعزفى ، واصلى لعبك على القيثارة » .



ولكن الأميرة توقفت عن العزف وإنحنت على القيثارة ، تحنو عليها وتنعم النظر فيها .

وأيقظها توسل « الأمين » . فإعتدلت فى جلستها ، وعادت لأوتارها ، تداعبها بعنف وقوة. وذهل «الأمين» ذهولا حينما تذوق الأنغام واللحن ، وغنت الأميرة ، وكانت كل كلمة صدى قادم من بعيد ، من وراء جبل :

يا الامين يا حلو يا جميل ..
قلبك عطوف زندك قوي



●

ارض شادي ترشك
ما احلاك ..
وما اقواك ..

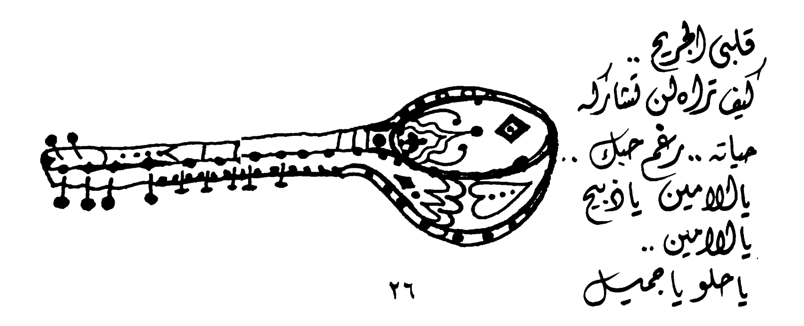
●

يا الامين يا حلو يا جميل .. وسكتت تنظر اليه بعينيها الواسعتين ، البياض حولها بياض ، والسواد في الحدقتين سواد . استجاب لهذه النظرة وقال في صوت اسكره الاستماع : "ارجوك اعزفي ، غني ." ولم تقل غادة شيئا ومضت تعزف وتغني مرة أخرى :

في كل بيت اوصافك رواية .. لكن آه ..

●

قلبي الجريح ..
كيف تراه لن تشاركه
حياته .. رغم حبك ..
يا الامين يا ذبيح
يا الامين ..
يا حلو يا جميل



وفتح عينيه حين سكتت فى تدرج ، خطوة خطوة ، لحناً لحناً ، كلمة كلمة . وكان فى إسارها الآن . وفى يمينها وقبضتها وقيثارتها وصوتها . وطال الصمت ، وبحث عن شئ يقوله . رمى تحت قدميها الذهب الذى كان يحمله بدلاً من الكلام . لكنها لم تدهش ونظرت إليه نظرات لم يفهم معناها ، وطال بينهما الصمت ، فشرع الأمين يتحدث عن كيسه المسحور ويجد لذة فى حديثه ، وكانت تعى كل كلمة تصدر منه وإنتهى . وهى تنظر إليه كأنها تبحث فى داخله .

ودخل عبد طويل . نصف عار . يحمل كوباً فيه ماء ، وفى الماء روح وريحان لايقاومه حتى الذى لم يعرف الظمأ عمره ، وشرب منه الأمين ، وهو يقول لنفسه :

« مكرت بى مرة ، لايمكن أن تمكر بى ثانية ، بعد هذا الغناء الحنون . هذا الجمال حرام عليه أن يمكر . » وكان ساذجاً طيباً لقد مكرت به مرة أخرى .

ووجد الأمين نفسه ملقى فى الطريق نفسها . لاكيس فى جيبه ولاقطعة ذهب واحدة مما ذهب به . لاشئ . وقام من مرقده ، ينظف ثوبه بيده من خلف . ويلوم نفسه التى خذلته مرتين ، حين لم تقاوم الجمال ، ولم تقاوم اللحن الحنون .

ثم ذهب إلى جدته على إستحياء ، يجر قدميه ، وعرفت ماكان من أمره وأمرها . فغمرته بعطفها قبل أن يفتح فاه بكلمة ، ومدت إليه عصا صغيرة وهى تقول له بصوت عطوف :

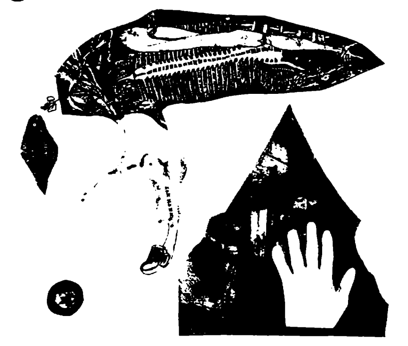
« هاك . لاتضع العصا هذه . » لم يبق عندى بعدها شئ أعينك به . أهم من هذا هو أن هذه العصا حياتك ؛ إن ضاعت ضعت أنت نفسك ، وإن سرقها أحد منك ستموت . سمعت ؟ تموت ، إنها عصا مسحورة ، تأخذك لأى مكان وتحملك من بيتك هذا إلى أية بقعة أخرى على الأرض ، ولن يراك أحد . تنبه هذه المرة ، فإن هذه العصا السحرية هى آخر ماعندى . إن فرطت فيها فرطت فى روحك . وأبقيت لى الأحزان . »

وما أن فارق جدته حتى همس للعصا ، فإذا هو حيث يريد أن يكون دائماً عند غادة . لقيها فى مكانها الذى لاتفارقه ، ووقف لدى الباب ، لايحرك

قدميه ، بهرته ، كانت تغنى لنفسها على قيثارتها أغنية شجية لافرح فيها ، ولاحزن ، شيء بين بين ، يحرك الحجر الصلد . يشجى القلوب المقفلة . ومضت فى أغنيتها الشجية ، حتى إنتهت . ولم يجد مايقوله . ولم تقل هى شيئاً . فإتجه نحوها ، ورأى فى عينيها سؤالا ، فأجاب وهو فى نشوة الطرب . يقص عليها قصة جدته وعصاه . فأمسكت بالعصا فى هدوء وحنان . وهمست بصوتها العذب تقول :

« ياعصا السحر ، خذيه للجزيرة اللعينة . » فإذا هو قد حملته أقداره لصخرة فى جزيرة فى محيط ، لايستطيع أن يتكلم .

ولم تكن الجزيرة كالجزر . كانت جبلا فى المحيط أعلى من جبال الأرض كلها ولو وضعت بعضها فوق بعض ، قمته تلامس السحب . قمة تقبض النفس ، لا لون فيها ، وحول الصخور سواد . لاكسواد الليل . بل أشد إظلاماً ، أرض عارية لانبات لاشجر إلا نخلتين لاخضرة فيهما . لاتهزهما أصوات المحيط الهادر ، كما لو كانت كلتاهما عمودين من صخر ، لاتحسان بالأمواج الهادرة التى تصعد الصخور تضرب حوليهما وتعود عالية ، أصواتها تصم أذن «الأمين » تقدهما قداً ، تخيفه . تخيف «هرقل» نفسه الذى فجر البحور والصخور ، وأنحدرت من عين « الأمين » دموع ساخنة ماعرفها



من قبل ، إذ كان شجاع القلب والحنان – كما قلت لك – شجاع النفس ، يملك من أدوات الشجاعة أكثر مما يملك أى إنسان : الشباب ، المال ، النفوذ والحكمة .

ثم جلس ينظر . لايعرف يمينه من يساره . لايجرؤ أن ينظر تحت ، فالمحيط بعيد عنه . بعيد . ومر زمان لايعرف مقداره، فالزمان با لحركة، تقيس مقداره بصحوك ونومك وأكلك وغدوك ورواحك . وماكان هناك شئ من هذا . لاغدو لارواح . لاطعام . لانوم . لاصحو . أين الزمان ؟ ورفع عينيه . بعد أن ألف هذا الخلط فى الزمان . وألف الخوف ، يعيش معه . لاينفك عنه . فرأى النخلتين . وكان قد « قرصه » الجوع ،فتسلق واحدة منها ، وهو يرتجف ، حتى وصل أعلاها، وملأ كفه من ثمرها، ونزل ليأكل هذا التمر ، وليسكت عصافير بطنه التى كانت تصيح وتصرخ ، وأكل واحدة والبرد والريح والخوف والوحشة والظلام فى النهار وفى الليل . كلها ترعبه.

لكن أسمع . تعجب. إن الذى حدث « لأمين » لم يحدث لإنسان، فقد أحس بكتفيه ترتفعان قليلا قليلا . وتؤلمانه ، وأحس بظهره يستدير شيئاً فشيئاً كالكرة، وأحس بألم كأنه يضرب بالمسامير فى صدغيه، وفوق أذنيه، وفى كتفيه، وفى ظهره، وفى يافوخه، فتلوى كحرباء أو ثعبان، وذعر أكبر الذعر ، حين رأى ذراعيه تمتدان قليلا قليلا . تطولان ، وأحس بعظامه « تتقلقل » داخل جسده، وصرخ حين وقع هذا، فما كان فى وسعه ألا يفعل غير هذا. وأحس كأن دمائه تصرخ فى شرايينه، لقد إنقلب « الأمين » بقرة .

بقرة ذات قرنين ، تلتويان أمامه ، يراهما بعينيه ، يرى أطرافهما تلتقيان وتفترقان ، ويمتلئ هو الأمين البقرة ذعراً ورعباً ، كلما إفترق القرنان وكانا هكذا يفعلان كل وقت . رقد كى لايستحوذ عليه هذا الرعب والذعر وتذكر جدته الحنون . وبلاده الواسعة ، وماكان يملك فيها من مال ونفوذ وسالت من عينيه الواسعتين . عينى البقرة، دمعة ساخنة، وتمنى لو أنه سمع كلام جدته التى حذرته من ألايسلم العصا لإنسان — وقد لعن الأميرة من كل قلبه . وغشاه نعاس خفيف ، ثم صحا منه ، لايعرف أكثيراً نام أم قليلا، فالزمان كما قلت لك لم تعد هناك وسيلة لمعرفته . وحدثته نفسه بالهروب . لكن الى أين ؟ هذه قمة الجبل ، وذاك هو المحيط الذى يضرب السفوح ضربة الحانق الغاضب . خير له والحال هذه أن يعيش ولو بقرة . من أن يموت . فالحياة حلوة .

وفى ساعة من ساعات الضيق ،لايعرف إن كانت فى الليل أو فى النهار مشى نحو النخلة الثانية ، وهزها هزاً شديداً بقرنيه ، ينفس عن نفسه،يعمل شيئاً ، فوقعت منها تمرات ، وأخذ واحدة منها « وأكلها » وكانت يابسة كالصخر ، فإبتلعها بنواتها ، واستقرت فى بطنه ، فإذا هى تهزه هزاً، وإذا بمفاصله تحس شيئاً غريباً يدب فيها . أسمع قدرة الله ، وأعجب . فقد رجع إلى ماكان عليه ، رجع إنساناً ولم يعد بقرة . وتلفت بعينيه الجديدتين ينظر ولايصدق مايرى . إنساناً سوياً ، يارحمة الله يسائل نفسه « هل أنا الأمين ؟ » وتجيب نفسه بصوت يسمعه « نعم أنت الأمين » . لقد وقعت المعجزة وعرف سرها . ذلك التمر من تلك النخلة . تمر نخلة أحالته بقرة ، وتمر نخلة أعادته إنساناً سوياً ، فشرع يأكل من هذا التمر ، حتى شبع وأطمأنت نفسه وكاد أن ينسى محنته الأولى . إمتلات بطنه من التمر الجديد ، وهكذا الواحد منا فرحه ينسيه نفسه ، وحزنه ينسيه نفسه . « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا » صدق الله العظيم . ثم نام الأمين سعيداً فوق الصخور ، وكأنها مهد من حرير ، لأنه تعب مما رأى وخبر . ومع الفجر فتح عينيه .

فتحهما على هزة فوق الجبل أهو الفجر أم هو وقت آخر من أوقات الليل أوالنهار ؟ كانت هزة خفيفة بادئ الأمر ، وقليلا قليلا أصبحت رجة، إرتجف معها الصخر ، والنخلتان، وقد تطاير رذاذ الماء على جسمه، يصيبه، يلسع كل جزء فيه . فكاد أن يتجمد من البرد ، ضم رجليه على بطنه ، يقى نفسه البرد، ووضع رأسه بين ذراعيه وصار يهتز كحصاة فى طبق يحركها بسرعة ولد شقى ، ووقعت الصخور فى المحيط ، واحدة بعد الأخرى، ولم يسمع صوتها، فقد كان الماء بعيداً عنه، بعيداً ، والريح عاتية عاصفة تكاد تقلعه من مرقده ، وتلقى به فى مكان آخر ، أو فى المحيط ، وتكاثف الظلام حوله فلم ير شيئاً مما حوله ، وصارت الجزيرة كأنها لقمة فى طبق ، وكاد قلب «الأمين» أن يطير شعاعاً ، ويخرج من صدره ، خوف الأصوات المرعبة التى تتصادم حوله؛ وتزداد عند تصادمها حدة .

وفجأة لمع برق ، رأى خلاله « شبحاً » قادماً من بعيد ، وعاد الظلام ، وحسب الأمين أن جبلا آخر فى طريقه إليه . وإنقبضت نفسه، لكن ضوءاً

خافتاً فى مقدمة « الشبح » إخترق الظلام كإختراق سكينة حادة بطيخة .

وأغمض عينيه من الضوء ، وفتحهما حين أحس « بالشبح » يسير كالبرج الكبير ، نحو النخلتين ، ولمح جناحين كبيرين ، وغطى الجناحان الجزيرة كلها ، وظللا النخلتين ، وكل صخرة ، وكل قمة ، وتذكر « الأمين » فجأة قصص الأقدمين عن الغول ، وحدثته نفسه أن هذا هو الغول ، نصفه وحش ، ونصفه الآخر إنسان . كور « الأمين » نفسه تكويراً ، كيلا يراه هذا الطائر الغريب ، وطرأت على رأسه فكرة . وخاطب نفسه قائلا :

« هذا الوحش هو الأمل ، ولن أترك الفرصة تمر » ثم إنثنى ومد يديه صوب الوحش ، وإمتلأ شجاعة مع الأمل العابر ، وقال لنفسه: « لابد من مغامرة ، ولن تكون حالى بعدها أسوأ من هذه الحال ، وإنه لمن الخير لى أن أموت وأنا أحاول الحياة، لاجدوى من القعود هنا والحزن على نفسى.» وقوى جسمه ، ووقف على قدميه والطائر يحوم حوله كالحائط ، لايخترق، وتحسس التمر الذى تبقى ، وتأكد أنه يحمل كميات منه، ومشى محاذراً فى ظل الطائر .

مشى ، ومشى ، حتى وجد نفسه ، تماماً تحت جناحى الطائر، فقفز من الأرض قفزة عالية ، ودخل تحت جناحه ، وأمسك بعظام هناك وافرة ، وظل عالقاً بالطائر ، والطائر لايحس به ، فطلع وتمدد على عظام الجناح ، يقى نفسه البرد والزوابع ، ملتحفاً بريش الجناح ، وكان ناعماً مثل كل ريش ، ولكن رأسه كان يدور والطائر يقطع المسافات قطعاً ، فى لحظات ، ثم تغير الجو وعرف الأمين أنه فى مكان غير الذى كان فيه ، وكان يرى المحيط بعيداً من فوق الضباب والسحب والنجوم اللامعة ، ويرتجف مما يرى كالقصبة فى مهب الريح ، لايعرف أين هو ولايعرف نهاية لهذه الرحلة .

* * *

وبعد فترة لايعرف مداها ، ليلة كانت أم يوماً أم شهراً أم بعض عام ؟ شاهد الأمين أضواء تلمع تحته ، والوحش يقترب من الأرض ، وكانت أضواء الأمل . « ما أكرمك يارب ، وما أرحمك . » تخلص الأمين من جناح الطائر ، وهبط ، يدور حول نفسه مرات ، وهوى ، هوى فى الفراغ ، وإستقر على رأس كوخ فى قرية ، بكل ثقله ، وصرخت عجوز فى الكوخ

تسأل !

« من ؟ من ؟ بسم الله ، بسم الله ! » وتدحرج الأمين من طرف الكوخ فوقع عند قدميها ، على الرمال الساخنة ، الرمضاء ، فقد كان الوقت بعد منتصف النهار ومشت العجوز وقد وثقت أن الثقل كان إنساناً . وهدأ بالها عند رؤيته . وزغردت كالمجنونة حين إقتربت منه . فقد كان حفيدها ، أمينها « الأمين » . وتجمع الناس حول العجوز حين سمعوا زغاريدها ، وذهلوا حين رأوا « الأمين » . وكان كلهم قد يئس من أن يراه ثانية ، وحملته العجوز يساعدها الجيران ودخلت به الكوخ وأوقدت ناراً . وجرت للمراح ، وعادت بعد حين بلبن ساخن . طازج ليشرب « الأمين » وشرب حتى رأت أنفاسه تعود. فسجدت شكراً لله . لما رأت الروح فى حفيدها قد ردت ، وزغردت ثانية . حين إنقلب على جنبه يريح جسمه . ورقد الأمين فى كوخ جدته أسبوعاً ، عادت إليه فيه صحته وذكاؤه وتماسكه. وفكر قبل كل شيء بالطبع فى غادة. التى أراد حياتها وأرادت هى موته. وتذكر التمر تمر الجزيرة . ووجد عدداً فى جيبه . وخطر فى باله الثأر من هذه القاتلة والإنتقام من أبيها الخبيث الماكر . ووضحت له الطريق فسارها كلها وفى نفسه الطيبة رغبة عارمة . أن ينقذ الناس من شر سلطان يغدر بالناس ، همه نفسه ، وبقاء سلطانه .

وضع التمر فى مقطف صغير . كله ألوان زاهية . حمراء. خضراء ، صفراء ، ولبس كما يلبس الباعة الذين يتجولون . وكان تمراً نادراً لاوجود له فى «قلقى»، والأميرة غادة تحب التمر وكانت تطل من نافذتها حين سمعت صوت البائع يصيح «تمر الجزائر ياحلو .» ثم أرسلت من يشترى المقطف كله، شرهة كماهى جميلة . وماجاء فى خاطرها أن هذا الصوت كان صوت « الأمين » فهى قد نسيته حين أرسلته لحينه ، لموته ذاك المساء ، ولم تعد تشغل بالها به .

وفى الصباح . كان الناس فى السوق متزاحمين كالعادة وحلقة هنا وحلقة هناك . وواحد فى وسط الحلقة يهمس شيئاً . ويؤشر بيديه وكتفيه

وعينيه . والباقون يسمعون . وخرجت أخبار عجيبة فى كل بيت ، وكل زقاق ، وكل دكان فى البلد ، وكانت أخباراً خطيرة ، لايمكن للواحد أن يصدقها . إلا إذا رآها بعينه ، وإنتشر الخبر بين الناس كما تنتشر النار فى الهشيم . وإنتشر مع الخبر خوف عظيم على البلاد ـ ماهو الخبر ؟ .

لقد إنقلب السلطان بقرة . وإنقلبت السلطانة بقرة، وإنقلبت الأميرة غادة بقرة .

ولكن الناس لم يصدقوا هذا الخبر لأنهم لم يحبوا أن تكون سلطانتهم بقرة . وأميرتهم بقرة . « شاد » العزيزة القديمة تحكمها بقرة . لايمكن . هذا لايدخل عقل الإنسان . ولكن الناس سمعوا خبراً آخر ، فصدقوا هذا الكلام العجيب . لقد جمع الوزير فى القصر كل ساحر وقارىء كف وضارب رمل . جاء للقصر كل واحد يعرف أسرار الإنس والجن . هذا يحمل مبخرة ، والثانى يحمل مجموعة خيوط ، وكلهم يتمتمون بالألفية والسبح تتدلى حول رقابهم ، ويهزون رؤوسهم الصغيرة، ويمسحون ذقونهم الشائكة شبه المخالى ولكن سحرهم لم ينفع . وطلعت نجمة الصباح وهم يدورون بالمباخر ، حول البقر ، ويربطون الخيوط فى الأعناق ، والبقر ترفس، كلما بصق السحرة ، فى وجوه الأبقار الملكية ! .

وعند الصباح ظهر الأمين فى القصر ، وأخذ الوزير على جنب وهمس له فى أذنه. وقال له إنه يعرف الدواء الوحيد الذى يعيد الهدوء له وللمملكة. لقد ورث السحر عن أجداده ولكنه لم يمارسه قبل اليوم . أما الآن فلابد له من ممارسته ، ليساعد السلطان والسلطانة والأميرة ، ويساعد أهل «شاد »، وقبل أن يرد الوزير على كلامه ، ناول البقرة السلطان تمرة ليبرهن للوزير على صدق كلامه . وتحولت البقرة إنساناً بعد فترة قصيرة وجرى نحوه ، وقبل يديه ، ورجليه ، وقال له :

« شكراً شكراً أيها الصديق العزيز . »

وكاد أن ينسى زوجته وإبنته من فرط الفرح ، وتذكر بعد أن هدأت روحه. وقال للأمين :«حفظك الله أرجع لى زوجتى وإبنتى إلى دنيا الإنسان من دنيا الحيوان ولك عندى كل الذى تتمناه ، أى شىء. »

فقال له :

« أمرك أيها السلطان » .

وناول البقرة السلطانة تمرة فإذا هي سيدة ، كما كانت ، جرت لزوجها تعانقه ، وللأمين تقبل يده وتشكره ، وتصيح فى الخدم ، أن يذبحوا الذبائح وليجيء الفقراء ويأكلوا فى بيت السلطان. وإنتظر الناس ولكن « الأمين » لم يعط الأميرة شيئاً تأكله ، فمشى السلطان نحوه وركع عند قدميه وتوسل اليه لأنه عرف ما فى ضمير « الأمين » ، وخاف خوفاً شديداً على نفسه ، وعلى إبنته فقال له الأمين :

« قف على قدميك أيها السلطان ، لقد أساءت إلى الأميرة أشد إساءة ولكنى لن أرد السيئة بالسيئة ، فأنا رغم كل شيء أحبها ، والحب عطف وود وحنان ورقة ، وأنا مسلم أعرف ثواب العافين عن الناس » .

وقام السلطان من الأرض يقول :

« بارك الله لك فى شبابك يابنى ، لكن أسرع بعلاجها ، فأنا لا أطيق الإنتظار . »

فقال الأمين :

« إنها بقرة الآن ، لكنها ستفهم كلامى حين أتحدث إليها . »

وإلتفت نحو البقرة الأميرة يخاطبها :

« لن أعالجك إلا بشرط . »

فهزت الأميرة رأسها علامة الموافقة ، فقال « الأمين » لها :

« الشرط هو أن تردى لى طاقيتى ، وكيسى وعصاى ، وأن يرد أبوك المهر الذى دفعته لأتزوجك . »

لم تضع الأميرة لحظة وجرت نحو مقصورتها ، وعادت تحمل فى فمها (فم البقرة يعنى) الهدايا السحرية الثلاث وجرى السلطان، وعاد يحمل صرة فيها المهر كله . وقال :

« أرجوك ، أرجوك . »

فأعطاها الأمين بلحة من الجزيرة اللعينة ، فعادت الأميرة فتاة ساحرة تملك قلوب الشباب ، وذهل الوزير وأصحابه مما رأوا وظهر الخبر للشعب

وللسحرة العاجزين .

وزاد إعجاب الناس « بالأمين » الذى ملك السفن فى النهر ، وبنى البيوت فى البلد ، والدكاكين فى السوق ، لقد ملك مع هذا كله ، السحر . كيف تعلمه ؟ ومتى تعلمه ؟ وندم السلطان على طمعه ، كما ندمت الأميرة على مكرها الذى نفع مدة قصيرة ولم ينفع من بعد ، كما هى حكاية المكر فى كل مكان وزمان . تغيظ به الناس فترة وفى النهاية تجد أنك الخاسر لأن الله مع الأخيار .

ثم جاء رسول ينادى « الأمين » للقصر فراح .

قال له السلطان :

« هل سامحتنا ؟ »

فسكت ، فسأل السلطان :

« تريد الزواج من « غادة » بعد كل الذى كان منها ، وكان منى؟ »

وقال « الأمين » وعيونه تلمع من السرور :

« مولاى أنا قلت لك إنى أحبها والحب يرحم ويغفر . »

وأمر السلطان أن يعقد عليها فى الحال ، وأن يخرج المنادى فى المدينة يحمل الخبر السعيد للشعب ، فزغردت النساء،ولعب الرجال بالسيوف والعصى وندمت « غادة » أكثر حين رأت حب الشعب « للأمين » ، وغير الله قلبها الماكر الخبيث إلى قلب طاهر يحب ، وعاشا معاً حياة رخية ذهبية يخلص كل منهما للآخر فى قصر «قلقى» العظيم .

* * *

والغريب العجيب ، أن الناس يقولون إن الأميرة الحسناء وزوجها «الأمين » مازالا يعيشان فى مكان لايعرفه أحد فى هذه الدنيا ، وفى مكان ما من أركانها الكثيرة ، ولكن لاأصدق هذا الكلام ، لأنه لايحصل الإ فى القصص والأساطير والخرافات . فقط من يعرف ؟ الحب الحياة . ربما كان صحيحاً .

اثيوبيَا

بائع العسل

زوجة العبلان

الحمار الموسَل

جمجمة تتكلم

القسيس والأرمَلة

الزوجة المكاجرة



أثيوبيا

قلت لكم وأنا اتحدث عن الصومال، أقدم قصة (العروس والخطاب الثلاثة) أني رجل متحيز وأحب الذين أحبهم حباً ينقدني عليه بعض الناس، ويقولون إنني أتحرك في حلقة واحدة. ربما كانوا على حق ، لأني لا أعرف أن أكره . وينقدني على هذا أيضاً بعض الناس ويقولون إني ضعيف. وربما كانوا على حق أيضاً. كثيرون من الناس لايخطرون لى على بال، لا لأني أكرههم ولكنى لا أجد وقتاً لهم. وجداني كله ملك هذه القلة التى أحب ، يستغرقنى حبهم، ولافائض عندى أوزعه على الناس بالقسطاس .

أقول هذا كله دون خجل، لأني متحيز للكثيرين ممن أعرف فى أثيوبيا . « هيلاسلاسى » مثلا ليقل ناقدوه مايقولون ، وأنا أشاركهم بعض هذا النقد ، لكنى لاأنسى أنه قال لى يوماً من الأيام « إني أشعر حين أسافر للخرطوم كأني أنتقل من حجرة فى بيتى هذا لحجرة أخرى.» دهاء ؟ ليكن . فلسانك حصانك، كما نقول . «كتما يفرو» مثلاً ، قال لى ونحن نسعى لنعالج أزمة من الأزمات التى تثور بيننا أحياناً. « لم كل هذا العناء يا أخى . أليست قطعة من الأرض بيننا وبينكم . تعالوا نعمرها معاً وننتهى . يزرعها السودانيون والأثيوبيون ». « أكليلو هبت » مثلاً ، أكثر ساسة أثيوبيا حساسية ، ولاأغالى إن قلت فى أفريقيا . « أياسو » بطل معارك الكنغو ، « رأس أمرو » الشيخ الجليل ، الذى سيتخذ مكانه فى تاريخ النضال ضد الفاشية ، فى المقدمة وصديقى العزيز « أببا » وزوجته « ولى » دارهما دار كل كبير العقل والقلب . سخاؤهما ماعرفت مثله هناك .

لكنى لم أسق لك القصص القصيرة والقصتين الطويلتين ، لأتحدث عن هؤلاء ممن عرفت وقدرت، بل أسوقها لتطل منها على العقل الأثيوبي كله، وهو عقل يصعب على الواحد العابر أن يدرك كنهه . ميزته الأولى الإرتياب والإحتيال على البقاء . عقل الأثيوبي نتاج تاريخه الطويل الذى ماعرف الأمان يوماً من الأيام . وذلك لأن أثيوبيا لم تهدأ يوماً فى تاريخها الطويل وتعرضت لحروب عديدة من الخارج

ولحروب عديدة فى الداخل . والأمان يدعو للطمأنينة والثقة ، وعكس ذلك الخوف يدعو للريبة والإحتراس .

وأمتع تاريخ فى القارة الأفريقية ، تاريخ أثيوبيا ، وما استطاع أحد أن يكتبه كتابة تطمئن إليها النفس . ذلك لأن الأسطورة تزاحم الحقيقة فى كل منعرج من تاريخ أثيوبيا . كيف دخلت المسيحية أثيوبيا مثلا ، يحكون عن صبيين كانا فى مركب غرقت على الساحل وكانت فى طريقها للهند من «صور» فى لبنان . وإحتضن ملك الحبشة الصبى « فرومنيوس » ، وعنه أخذ المسيحية ، ونشرها فى بلاده . صلاتهم بالعرب مثلاً ؟ قبل الإسلام ، قصص القرآن . وما نسج حولها الناسجون عن الطير الأبابيل ، وبعد الإسلام ، حين نزح اليها المسلمون مرتين ، وأسلم على يدهم أحد النجاشيين هو النجاشى « أحمد » الذى زرت قبره فى خلاء على قمة جبل فى مكان قفر شمال غربي أثيوبيا ، بالقرب من أسمره .

ويزوره المسلمون كثيراً هناك . وحروبهم مع « محمد قران » قائد جيوش الصومال ، وإستعانتهم بالبرتقال للتغلب على بأسه ، وإنقلابهم على هؤلاء ، حين رأوا اليسوعيين . يريدون لهم أن يخرجوا على الكنسية القبطية .

*

وفي العصر الحديث حين ذبح « موسولينى » مئات المقاتلين من أهل أثيوبيا ، لينشر المدنية الأوربية فى متاهاتها ، وقامت الدنيا عليه ترده عن غيه ؛ وقد أرسل السودان بجنوده لتدافع عن أثيوبيا وقد خلد ذكرهم عمنا الصالح « أحمد محمد صالح » حين قال فيهم أهازيجه التى تزين جبهة الشجاعة السودانية ومنها :

والجنود السمر فى كرن كالمنايا السود فى الإحن

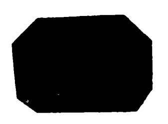
ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المضطرب هى التى خلقت الإنسان الأثيوبي المعاصر ، يحاذر فى ذكاء ، ويعمل قادته فى الحكم وخارج الحكم ، ليعيدوا للنفس الأثيوبية ، بعض الطمأنينة ، التى إفتقدتها حين كانت « لعبة أوروبا» كما يسمى أثيوبيا مؤرخ من المؤرخين الذين يكتبون عنها .

حتى إسمها تغير فى العصر الحديث ، تمشياً مع هذا الهدف الجديد . كان إسمها الحبشة بمعنى الخليط الهجين كما يقول العرب

واختارت أثيوبيا – بمعنى ذوى الوجوه المحروقة – كما يقول الأغريق ويتجادل العلماء حتى يومنا هــذا عن أصل الكلمتين ، ولــكن «هيلاسلاسى» دفع أثيوبيا لعتبة التاريخ . عاصمتها «أديس» مقر منظمة الوحدة الأفريقيـة ، ومقر اللجنة الإقتصادية لأفريقيـا ، ويزورهـا الناس من كل قارة ليتعرفوا على هذه البلاد التى قال عنها « قبن » – المؤرخ الكبير – «نامت ألف سنة ، ونسيت الناس ، كما نسيها الناس.»

وعلى الشباب الذى تحرك هذه الأيام ، أن يدخل بلده التاريخ وقد وقف بها « هيلاسـلاسى » على العتبـة ، بعد أن أيقظها بعون أصدقائه من الشباب ، وأنــا أعرف أنهم يدركون إدراكاً أن أثيوبيا تربطها بنا روابـط لن يسـتطيع عصر الآلة أو تسـتطيع المسيحية الغالبة الآن أن تقطعها ، فليس فى طوق أحد أن يكون إلا جزءاً من تاريخه . وأثيوبيا وإن خفى عــلى بعض ساستهم وعلى بعض رجالنا العاملين قطر من أقطار النيـل الثلاثـة : مصر ، السـودان ، وأثيوبيـا .

والآن سأقفل فمى الكبير لتتمتع بقصص الأثيوبيين وترى من خلالهـا عقلهم الذى صنعه تاريخهم القلـق وحاضرهم الحـذر .





بـائع العســل

تعود بائع العسل فى البلدة أن يهمل نظافة الإناء الذى يبيع فيه، فتحول عنه زبائنه إلى بائع آخر، وكان رجلا نظيفاً، لايترك الذباب على العسل الذى يبيعه .

وإنتظر الرجل الأول أياماً طويلة ، وكان يرجع كل يوم للبيت ، لايبيع عسله لأنه كان ملآناً بالذباب ، فجاع أولاده ، وتعبت زوجته، كما كسدت تجارته .

ودخل المحكمة يوماً وقال :

« ياسيدى القاضى ، أرجوك أن تسمع شكواى .أنا رجل فقير ، ولابد أن تسمع لظلامتى وتساعدنى . » فوافق القاضى وقال له :

« ما الحكاية ؟ » .

فقال الرجل :

« إن الناس لايشترون منى العسل هذه الأيام ، ويشترون من رجل آخر جاء جديداً فى البلد . »

فسأله القاضى :

« ولماذا يشترون منه ؟ »

فقال :

« إنهم يقولون إن العسل الذى أبيعه وسخ، ملآن بالذباب . »

وضحك القاضى وقال له :

« أنا أحب أن أساعدك ، ولكن لاأجد طريقة أساعدك بها . إن عدوك الأكبر هو الذباب . » فسأل بائع العسل :

« وماذا أفعل أنا الآن ؟ » فقال له القاضى :

« لقد سمحت لك أن تقتل كل الذباب فى البلد ، وفى العالم إن شئت، وتتخلص من عدوك الأكبر ، بعد هذا تبيع عسلك فى هدوء . »

وغضب بائع العسل من هذا الحكم . . . ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، وتحرك من أمام القاضى ، فرأى ذبابة على كتف مساعد القاضى ، فجرى نحوها وضربها ضربة شديدة ، وهى على كتف مساعد القاضى ، ولم يعاقبه أحد وخرج رافعاً رأسه مسروراً لأنه قتل ذبابة من ذباب العالم .

زوجـة العبلان

كان القرد يتمشى يوماً ما فى البلد ،
ووجد فى الطريق زوجة العبلان مربوطة على شجرة
« مساء الخير ياسيدتى » وردت :
فى الغابة فقال لها :
« مساء الخير » بصوت لايهمه الخير أو الشر . وقال :
« من الذى ربطك هنا ، ولماذا ؟»
فقالت زوجة العبلان :
« إنها قصة طويلة ياعزيزى
أجلس لأحدثك ، إن كان
عندك وقت يكفيك »
فجلس القرد يسمع.
وقالت زوجة العبلان :
« إن سيدى رجل يحب
الخير ويعاملنى أحسن معاملة
وكل دقيقة يريدنى أن أشبع
خبزاً وزبدة وخضاراً وعسلا،
ولكن تعبت من الأكل ،
ورفضت، فعاقبنى هذا العقاب الذى تراه، وربطنى على هذه الشجرة . . و . .»
ثم بكت ولم تستطع أن تكمل كلامها ـ فقال لها القرد :
« أنت حمقاء ياسيدتى . لماذا لاتأكلين مايقدم إليك ؟ إنه ينفعك ، وإذا كان هذا هو سبب العقاب ، فأنا مستعد لمساعدتك . أذهبى أنت وخذى

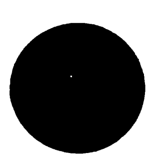
حريتك وسأربط نفسى مكانك هنا . » وقبلت زوجة العبلان ففك القرد قيدها وقيد نفسه .

*

وفى الصباح جاء الرجل كعادته . . . ولم يتنبه للتغير الذى حصل فإنهال ضرباً على القرد . وشرع هذا يصيح بأعلى صوته ويقول :

« ياسيدى . تبت أنا مستعد لأكل ماتقدمه لى . كل شيء . العسل والخضار والخبز والزبدة . لن أرفض شيئاً . » . . . . ولكن الرجل ظل يضربه حتى أصابه الإعياء ، ثم نظر . فإذا المضروب قرد . ولما سأل عن القصة حكى له ماحصل . فضحك السيد وقال :

«لقد وقعت فى شر أعمالك. أنا ربطت زوجة العبلان هنا وأضربها كل صباح لا لأنها ترفض الأكل ، بل لأنها تأكل كثيراً وأنا أريد تأديبها ».



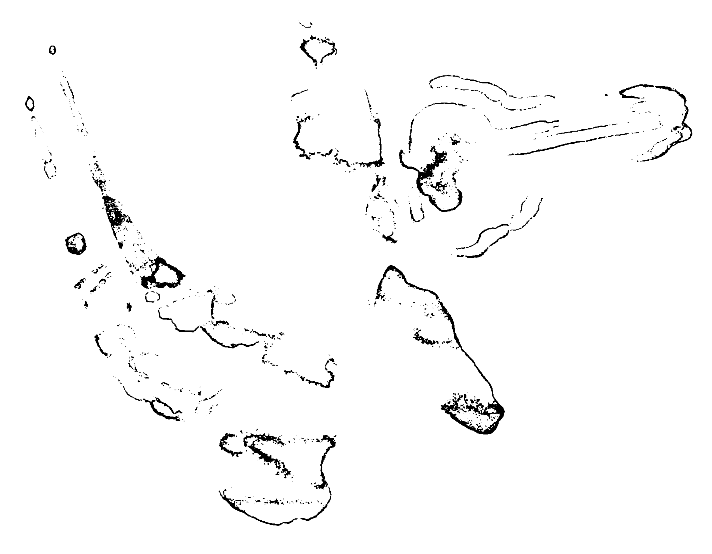
الحمار المرسل

كلما قابل حمار أخاه فى الطريق ، وقف ثم وضع فمه فى فم أخيه ليشم تنفسه ، هل تعرف السبب فى هذا . . . . . ؟

وسبب ذلك هو أن الحمير منذ خلقها الله وهى تشقى بأحمالها الثقيلة من مكان لآخر ، وفى يوم من الأيام فى الزمان القديم ، إجتمعت وقررت أن ترفع شكوى للسماء ، ليخلصها من العذاب .

وأرسلت حماراً للسماء ليتقدم بهذه الشكوى ، ولكن الحمار المرسل لم يرجع حتى الآن وقد طال الزمن .

وكلما قابل حمار أخاه وقف يسأله عن الحمار المرسل . هل رجع ؟ لم يرجع طبعاً . لأنه لم يذهب .



جمجمة تتكلم

دخل صياد الغابة وبينما هو يمشى وجد جمجمة إنسان .

قال لها :

« من الذى أتى بك إلى هنا ؟. »

قالت له :

« الكلام ياصياد . »

وجرى الصياد لقصر الملك يحمل الخبر . قال الصياد :

« لقد وجدت جمجمة فى الغابة . »

قال الملك :

«وما الغرابة فى عثورك على جمجمة فى الغابة ؟ .»

قال الصياد :

« إنها تتكلم . »

قال الملك :

« ماذا قالت ؟ » .

قال الصياد :

« طلبت منى أن أسألك عن حال أمها وأبيها . »

قال الملك :

« ما سمعت بمثل هذا من قبل . »

* * *

ثم نادى الملك الوزير وسأله، إن كان قد سمع بأن هناك جمجمة تتكلم.

فقال الوزير :

« لم أسمع بمثل هذا حتى فى الخرافات. »

فأمر الملك الوزير ، قال له :

« خذ معك فرساً ، وأذهب للغابة مع الصياد ، لتر بنفسك إن كان هذا صحيحاً أم لعباً بالملك . » ثم قال للحراس الذين سيذهبون مع الوزير والصياد:

« إن وجدتم هذا الصياد قد ضحك علينا إقطعوا رأسه ... إقطعوا

رأسه فى الحال . »

* * *

وذهب الجميع للغابة ، ولكن الجمجمة أبت الكلام فصرخ الصياد :

« تكلمى ياجمجمة . » ولكن لاحياة لمن تنادى .

وجعل المسكين يصرخ ، والجمجمة ساكنة لاتقول شيئاً . وكادت الشمس أن تغيب فقال الوزير :

« يا حراس نفذوا أمر الملك » .

* * *

وفى الليل فتحت الجمجمة فكيها الكبيرين والتفتت إلى رأس الجمجمة الإنسانية :

« أنت هنا . . . ؟ من الذى أتى بك ؟. »

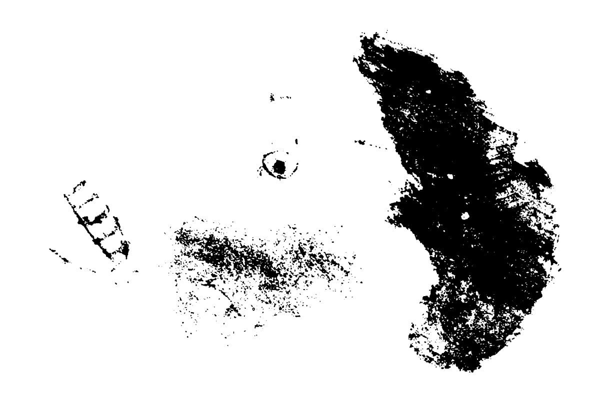
قال الصياد :

« الكلام ياجمجمة النحس . »



في مقلى

لما زرت « مقلى » مع صديق لى من السودانيين الذين عاشوا نحو عشرين سنة فى الحبشة، سمعت الحكاية التى أحكيها لك الآن، رواية عن رجل ظريف لايعرف غير لغة التقراى ، ويتحدث فى ظرف لا يضحك ، لايبتسم ، وصديقى هذا يترجم ، والرجل يسأله « هل فهم النقس ؟ » يريد أن يتأكد ، وأظن أيضاً يتهكم لأنه كان يسمينى « النقس » وهذه الكلمة معناها الملك ، وإسم الإمبراطور نقس ، نقس يعنى « ملك السودان » وهذا الرجل الظريف مافهم كلمة « سفير » لازم ، حتى بعد أن شرحها له صديقى، وإختصاراً لوقته سماني « نقس » السودان . لعين . لكن حكايته التى حكاها من الطف ما سمعت .



القسيس والأرملة

كانت تعيش هنا في «مقلى» أرملة ، وكانت سيدة متدينة تصلى فى الكنيسة كل يوم أحد . وكان يؤم الصلاة فى تلك الكنيسة الضيقة قسيس ذو لحية طويلة ، فيها شيب كثير ، وكلما رأته الأرملة داخلا للمحراب بكت وسال الدمع على خديها ، وكلما سألها الناس ماذا بها كانت لاتجيب وتمشى لحالها .

وفى يوم من الأيام أمسكها رجل من ذراعها وقال :

« ينبغى أن تقولى . تكلمى . لماذا تبكين كلما دخل القسيس ؟ »

قالت له :

« أترك ذراعى لا شأن لك بى . »

وخاف الرجل من الكلام الكثير ، وتركها .

وإستمرت هذه الحالة . كلما دخل القسيس بكت ، وتجمع المصلون فى الكنيسة يوم أحد ، وقالوا لها :

« هذا لايمكن أن يكون. ينبغى أن تكلمينا . لأننا نريد أن نساعدك . ولايمكن أن نساعد إلا إذا عرفنا الحكاية . تكلمى . »

فقالت لهم :

« إننى لن أتكلم عن سبب البكاء إلا إذا حضر القسيس نفسه . »

* *

وحضر القسيس ومعه ذقنه . لحيته الكبيرة . وقال لها :

« يا إبنتى أنا أحب أن أساعدك ، ويجب أن تخبرينى عن السبب الذى تبكين من أجله. أنا أبوك تكلمى. فأنا لا أستطيع المساعدة إلا إذا فهمت . »

ونفذت الأرملة رجاء القسيس وقالت له :

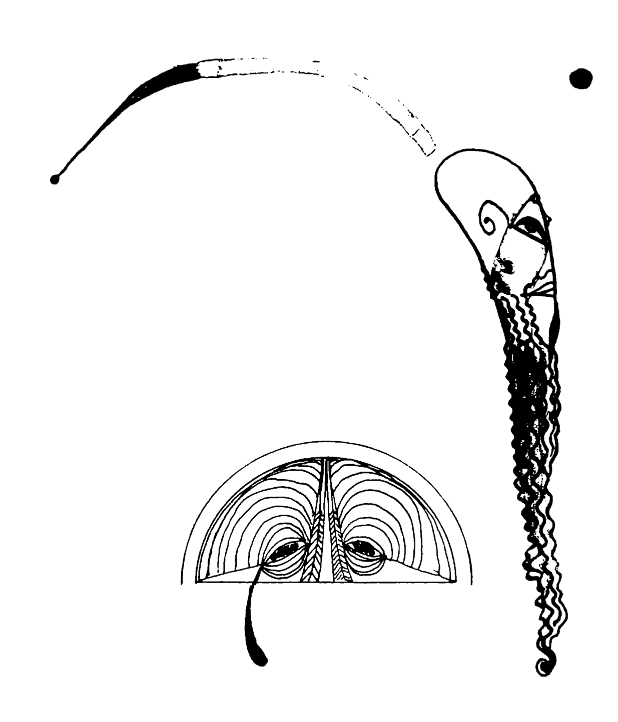
« يا أبى أيها القسيس . أنا أبكى كلما جئت الكنيسة. لأنى أذكر معزتى العزيزة كلما جئت للصلاة أمامك . »

فقال لها :

« معزتك العزيزة ؟ ماذا تقصدين ؟ » .

قالت :

«كانت معزتى حلوة ظريفة أحبها كما أحب عيونى – وسكت الناس يستمعون ، وإستمرت تقول – كانت معزتى حلوة ظريفة أحبها كما أحب عيونى ، وكانت لحيتها طويلة مثل لحيتك بالضبط . كلما رأيتك يا أبى ورأيت لحيتك تذكرت معزتى . »



الزوجة المكاجرة

عاش فى الحبشة رجل إسمه « سيوم » مع زوجته المسماة « ملمابيت» وكانت مشاكسة إذا قال : « يمين ».
قالت :
« أحسن شمال »
وإذا قال :
« جبل ميدوب »
قالت :
« تمر حنة »
ثم قال لها فى يوم من الأيام :
« محصولنا جيد هذا العام . تعالى لنبنى بيتاً مستديراً من الحجر »
فقالت له :
« من الأحسن أن نبنى بيتاً مربعاً من حطب البان . »
وبعد المحصول وبيعه فى السوق، بنى «سيوم» بيتاً مربعاً من حطب البان ليكفى نفسه شرها.
وفى يوم من الأيام ألمته معدته فقال لها :
« الماء الراكد فى النهر هو الذى آلم معدتى . إنه لايصلح للشرب . ومن الأصلح أن تجلبى لنا الماء من النبع ، قرب الجبل وراء البيت . »
فقالت له :
« أنت لاتعرف أن ماء النهر فى هذه الأيام أحسن . » ثم حملت جرتها على ظهرها وذهبت للنهر لتحضر الماء وأبت أن تسقيه من النبع .
وهكذا إشتد المرض على زوجها فقال لها « أصنعى لى فنجان قهوة يا إبنة الحلال . عندى صداع . »
فتقول :
« لاأنت جوعان ، والجوع هو الذى يسبب لك الصداع . » وتدخل

المطبخ وترجع بطبق كبير من البليلة . وقد إشتاق الزوج فى يوم من الأيام لأكل اللحم فقال لها :

« قومى وخذى الغزالة التى إصطدتها هذا الصباح وأطبخيها لنأكلها .»

فتقول له :

« لقد أكلت لحماً فى الأسبوع الماضى . » ثم تدخل المطبخ وتعود بعد أن يكون قد نام من التعب وتحمل قدراً من عصيدة الطا ف « ذرة الحبشة ». وتوقظه من النوم ليأكل طعاماً لارغبة له فيه .

وكانت فى طريقها يوما للسوق فتذكر أنه يحتاج لمكتل لأعمال الحقل وقال لها :

« الله يبارك فيك ، أحضرى لى معك مكتلا من السوق » فلم ترد عليه وراح لعمله ورجع ، فرآها قادمة من بعيد تحمل له قدراً بدل المكتل ، وسكت لأنه لايريد الكلام فى موضوع لافائدة فيه ، فهو يذكر جيداً ، أنه طلب منها المرة الماضية حين ذهبت لسوق المدينة ، أن تحضر له قطعة « بوبلين » ليخيطها طاقية يلبسها فى الحقل ، فأحضرت له ورقة ملح . ولما سألها :

« أين الطاقية ؟ »

أجابت :

« ظننت أنك قلت لى أحضرى ملحاً ، فأحضرت ملحاً . »

وكان آخر حادث حصل هو يوم أن قال لها « سيوم » :

« تعالى يوم الأحد ، باكر ، لنزور والدتك . فأنا لم أزرها منذ مدة . »

قالت :

« لا سنزور والدتك أنت . لأننا لم نرها فى الكنيسة يوم الأحد الماضى . وربما كانت مريضة.» وقبل هذا الكلام . ولكن القبول لايعنى أنه كان موافقاً . قال لها :

« مناسب أنا مشتاق لوالدتى ولنذهب اليها . »

ولما جاء الصباح . وصلا آخر القرية ومشى « سيوم » جهة التل . كما كان يمشى كل مرة .

فقالت له :

« لا . تعال من هذه الناحية ، تحت الوادى . »

فقال لها :

« ماذا حدث ؟ كل مرة كنا نمشى جهة التل لنطمئن على الغنم ، قبل أن تغيب الشمس . » قالت له :

« لاتخف . الضباع لن تأكل الغنم ، لأنها لم تأكلها من قبل . » ومشى معها تحت التل ، ولما رجعا من الزيارة ، لم يجدا الغنم ، فقد أكلتها الضباع . وهنا قال « سيوم » – لنفسه :

« قضى الأمر وكثرة التكرار تعلم الحمار ، وقد تعلمت من هذه المرأة أن أخلاقها مقلوبة وهى تمشى على رأسها . »

ومن ثم فإن « سيوم » كان أتعس رجل فى القرية ، لأن « ملمابيت » تعمل كل شئ بالعكس وتفهم كل شئ بالمقلوب: الشمس عندها قمر. والبر بحر . والملح سكر .

* * *

وتعلم «سيوم» مع طول الوقت كيف يكلمها . إذا أراد أن يأكل قطعة كعك قال لها : « أريد فنجان قهوة . »

وإذا أراد فنجان قهوة قال لها : « أريد قطعة كعك . » وإذا رأى النهر راكداً يحوم فوقه البعوض قال لها :

« ما أحلى ماء النهر . » وإذا جاءه ضيوف وأراد أن يرحب بهم بالغناء والموسيقى قال لها :

« هذا هدوء بسيط يجب ألايعكره علينا أحد بالغناء والموسيقى . »

فما تلبث أن تخرج وتحضر فنان القرية ، يحمل الطنبور ومعه عدد من « المغنين » وإمتلأ البيت غناء وطرباً ، ورقصاً وموسيقى ، بالضبط كما أراد « سيوم » .

الشاهد أن الرجل عرف دواء المرأة . أما أهل القرية فكانوا دائماً يقولون « مسكين «سيوم». رجل فاضل. ما الذى رماه على هذه المرأة الشاذة ؟» – المرأة المشاكسة – ويعطفون عليه .

ثم هطلت أمطار شديدة فى أول الخريف وهم فى « أديس أبابا » وقال لها «سيوم» :

« نبيت الليلة هنا فى المدينة ، وغداً فى الصباح نمشى إلى بيتنا مع الضوء . » فقالت له :

« مجنون ، هذه أمطار يونيو ، وستكف بعد قليل . »

وركب المسكين بغله ، وركبت هى الحصان وخرجا من المدينة ومشيا طول الليل، لأن الطريق كان موحلا كله ، والبهائم لاتمشى إلاخطوة خطوة، وعند الضحى المشمس وصلا إلى نهر الحواش ووجداه قد إمتلأ ماءً بين يوم وليلة ، وفى وسطه ، أشجار كبيرة إقتلعها فى الطريق ، وعشب أخضر، يضرب الشاطئ على اليسار ، لشدة إنحدار الماء وقوة التيار ، كعادة نهر الحواش دائماً .

قال سيوم لزوجته :

« ماذا نعمل الآن ، كيف نعبر النهر ؟ سيكون صعباً . » وطبعاً قالت «ململبيت» :



« لا. ليس صعباً. نربط البغلة والحصان هنا فى هذه الشجرة ونعبر نحن، وحينما يغيض الماء غداً تأتى أنت وتحضر البغلة والحصان .»

فقال لها :

«يابنت الحلال. هذا خطر. ننتظر قليلا حتى يغيض الماء.» فقالت له :

« كلام هراء . »

ورفعت ملابسها تريد أن تعبر النهر. فخاف «سيوم» وقال لها وهو يشمر ملابسه بسرعة . « عيب إنتظرى لأتحسس الماء ». ودخل «سيوم» وعبر النهر القوى ، تهزه المياه الجارية هنا وهناك ، إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر ولبس بقية ملابسه ، فقال لها :

« تنبهى جيداً . أعبرى من هذه الناحية . » وأشار لها على المكان الذى يمكن أن تعبر منه ، ولكنها كانت تسير نحو أعمق مكان فى النهر ولم تسمع كلامه .

فصرخ :

« أبعدى عن هذا المكان العميق الذى تحيطه الصخور ، وتعالى من هذه الجهة أرجوك . »

ولكن «ملمابيت» مشت لحتفها «وسيوم» يصرخ ينادى «ملو . . . ملو . .» إلى أن جرفها التيار ، ودارت مع الماء دوراناً ، ونزلت لقاع النهر ، ووصل أهل القرية المجاورة عند سماعهم الصراخ فوجدوا «سيوم» قد خلع ملابسه ودخل النهر لينقذها فلم يجد أثراً لها فقد إبتلعتها المياه الجارية ، ودخل شباب القرية يبحثون ولكن بلا جدوى . وخرج كلهم من الماء متعبين ، وجلسوا حول «سيوم» ، وهو يمسك رأسه بيديه ، وينتحب .

وقال بعد أن هدأت نفسه :

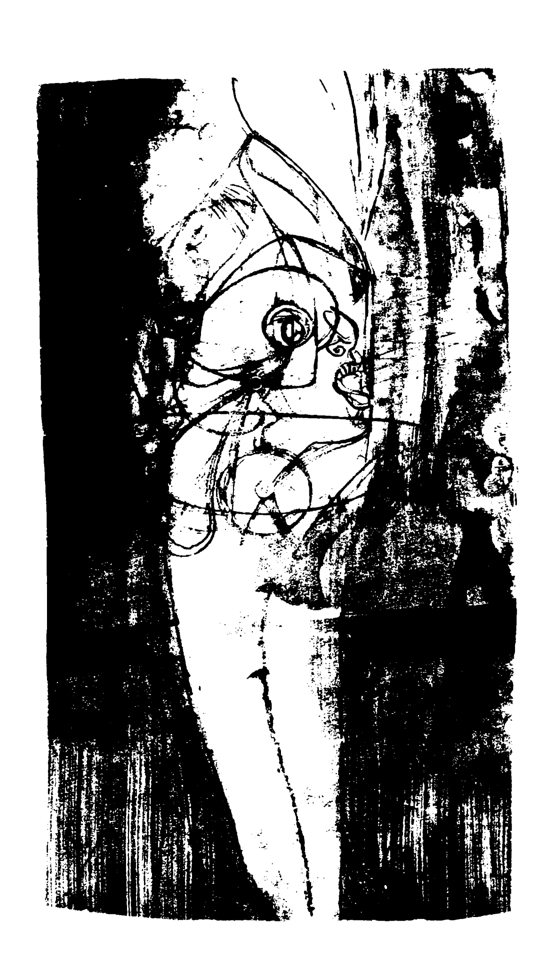
« لعلها إتجهت ضد التيار . »

وأشار الى الجهة التى يأتى منها النهر .

« لايمكن لها أن تمشى مع التيار . هذا طبعها إنها تكابر فى كل شئ حتى الطبيعة. »

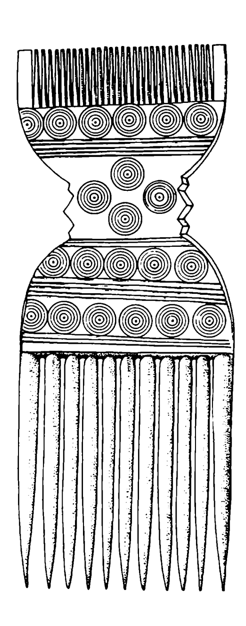
ولم يصدق شباب القرية هذا الكلام لأنهم لايعرفون «ملمابيت».وخلعوا ملابسهم مرة ثانية ودخلوا يبحثون فى النهر، «وسيوم» يضحك من طيبتهم وتركهم .

وركب بغلته ، وجر الحصان وراءه ، وهو يقول لنفسه : « مسكينة ملو صادقت العناد، حتى إنتهت إلى الموت. يرحمها الله إن كانت ستقبل رحمته.»



زنجبار

كنقو



زنجبار

«لنقو» قصة من زنجبار ، جزيرة القرنقل ، والنحل ، والكاكاو التى تلقاك بريحها العطرة الحلوة ساعة هبوطك أرض المطار ، وكأنها تقول لك : « جئت أهلا وحللت سهلا » وهى لاتسرف فيما تقول ، فعلا ترحب بك .

والسوداني فى زنجبار يحس كأنه واحد من الأهلين ، لالنداء الكرم الذى يلقاك به من يعرفك ومن لايعرفك فحسب ، بل أيضاً لوجود هذا الشبه بينه وبين الناس فى الملامح والملابس والمزاج ، ويزيد من الألفة أن كل الناس يتحدثون باللغة العربية ، بجانب اللغة السواحلية . وصحيفة الحزب الوطنى فى زنجبار تصدر بلغات ثلاث ، هى العربية اللغة الأم لهذه الجزيرة القديمة ، والسواحلية اللغة التى نسجها الأجداد يوم قدموا من مسقط ، وعمان ، وفارس ، وتحدثوا بها إلى الافريقيين زنج السواحل ، والإنجليزية لغة السياسة والتجارة اليوم ، بعد أن أبدل الزمان العرب بالإنجليز .

وحين تخرج من المطار تلقى الأهلين كلهم فى الطريق ، فالسكان فى هذه الجزيرة العطرة لايصل تعدادهم إلى ربع مليون نسمة ، ويخرج أكثرهم لظلال النخيل عندما يأتي المساء كما نفعل نحن هنا هرباً من القيظ ، ويجلسون أول الليل على النجيل وفى الأندية السياسية والثقافية والرياضية ، يتحاورون حيناً فى السياسة ، وحيناً فى الشئون التى تتصل بالإستقلال ، والذى كانت تعمل له الأحزاب حين زرت الجزيرة ، وكان الشباب يحلم بأن يعيد للجزيرة مجدها القديم فى تاريخ القارة الأفريقية : دور ما إحتله مكان صغير (طول الجزيرة خمسة وثلاثون كيلومتراً) فى أى تاريخ ، وترى آثار هذا المجد الذى أشير إليه ولايفتأون ذكره أني ذهبت للجزيرة ، وهو مجد يتصل إتصالا وثيقاً بالتاريخ العربي فى شق ، وبالتاريخ الأفريقى فى شق آخر ، وترى الأثر العربي فى كل شيء اليوم ، من مسقط ، وسيون وتريم ، وتراه فى الملابس الزاهية الألوان وفوقها القميص الأفرنجى ،

وفى الخناجر التى تتدلى من الأوساط ، وفى العمائم الكبيرة ، وفى المراكب التى تشبه المنازل ويسمونها « الداو » يرحلون بها الآن كما كان يفعل الأجداد منذ مئات السنين ، بين الجزيرة والساحل الافريقى ، والهند ، وسومطرة ، ومسقط وعمان .

كل هذا تراه ، فتحس أنك تعيش قطعة من التاريخ ، بقيت على الأيام لم تمسه يد مخربة . ولكنك تستيقظ فجأة ، حين يحيى أعضاء الحزب الوطنى بعضهم بعضاً ، وتدرك أنك فى العصر الحديث على أرض قديمة . على الجدران فى مكاتبهم صور قادة العرب ، كالسنوسى وجمال عبد الناصر .

وقد أستهوت هذه الجزيرة الخضراء تجار العرب . والفرس منذ القرن الثامن الميلادى ، فأتخذوها مقراً بادئ الأمر ، ثم قفزوا للساحل الشرقى فى القارة ، ودخلوا تنجانيقا الحديثة وموزمبيق ، وتركوا فيها وفى الكنغو ، وأوغندا . آثار أقدام كثيرة ، وكانوا يحملون معهم دينهم الحنيف ، ولغتهم إلى هؤلاء الوثنيين ، قبل أن يصل المبشرون ، ولم يكن حينذاك لدين سماوى أثر ، وقد أخذ سكان زنجبار عن الأفريقيين لغاتهم العامة وعلى رأسها البانتو ، كما أخذ هؤلاء عنهم ما إستطاعوا من اللغة العربية وتكونت عبر السنين الطويلة لغة لاهى بالعربية الخالصة ، ولا هى الأفريقية الخالصة ، وهى اللغة السواحلية ، التى يتكلم بها أكثر الناس فى أفريقيا الشرقية وأفريقيا الوسطى كذلك ، وتكاد اللغة السواحلية أن تكون اللغة الثانية فى القارة لافى ذيوعها بين الناس فحسب ، بل فى قصصها وأشعارها وآدابها أيضاً ، والقصة التى بين أيدينا الآن من زنجبار وهى قصة «لنقو» أخذت عن السواحلية ، أى لغة الساحل .

* * *

يقول أهل زنجبار إن قصة «لنقو» ليست خيالا محضاً ، ذلك لأن تاريخهم الطويل الطريف . يعرف ملكاً بهذا الإسم ، وإن كان الزنجباريون لايعرفون الآن على التحقيق ، متى عاش هذا الملك ومتى حكم ، وأين مات ؟! ! ويقول قس إشتهر بمعرفته لآداب اللغة السواحلية أن هذه القصة تروى فى كل مكان يتحدث أهله السواحلية ويرددها السيد « خميس ولكاى » أكبر المؤلفين القصصيين فى اللغة السواحلية .

لـــــنـــــقو

كانت شانقا جزيرة من الجزر المجاورة لزنجبار ولها حاكم يخافه الناس أسمه « لنقو » كان قوياً فى عظمة ، إذا جادله أحد من الناس قطع رقبته بذراعه الحديدى ، وإذا تزوج أحد الناس زوجة جميلة أو غنية ، طلقها منه وأخذها لنفسه . وإذا كان محصول الكاكاو لأحد المزارعين جيداً أخذ أكثره لنفسه ، وهكذا كان لايسلم أحد منه .

وفى يوم من الأيام تجمع أهل الجزيرة فى الظلام وتحت الشجر ودبروا خطة ضده . إتفقوا على أن يذهبوا ليلا إلى بيته ويوثقوه من يديه ورجليه وفى غفلة من عبيده الكثيرين ، دخلوا بيته ، كما إتفقوا ، وحملوه إلى السجن والقوا به فى ركن هناك ثم رجعوا البلد ، واختاروا واحداً منهم ليكون حاكماً بدل «لنقو» الظالم . عينوا حاكماً غيره .

وقعد «لنقو» فى السجن أياماً كثيرة يناوله الحارس الطعام والشراب من طاقة فى باب السجن . وفى يوم من الأيام أدخل السجان يده من الطاقة ، فأمسك بها «لنقو» وكاد أن يكسر له أصابعه .

وتألم السجان كثيراً ، وفتح الباب ، فخرج «لنقو» من السجن، لكنه لم يذهب لبيته إلا فى الليل . تسلل إليه خفية . ثم جمع كل السلاح الذى كان فى بيته ، ودخل الغابة ، وهناك جلس بالمرصاد للناس ، يعذبهم عذاباً شديداً ، ويقتلهم بعض الأحايين ، حتى خاف الناس منه . ولم يستطع أحد أن يذهب للغابة ليقطع الحطب ، ولم يستطع أحد أن يقترب من الآبار الحلوة قرب الغابة خوف العذاب والموت . وضاق أهل شانقا ضيقاً أشد من ضيقهم الأول .

وتجمع أهل البلد . يفكرون ماذا يفعلون ليتخلصوا من هذا الرعب ، فقال واحد من الكبار : « تعالوا نذهب نصف الليل ، حيث ينام . ونوثقه بالحديد والسلاسل. »

وفعلا ذهبوا فى ليلة مظلمة وربطوه بسلاسل ، وإتفقوا على أن يحرسه جماعة منهم كل ليلة ، يحملون السلاح ، والعصى الغليظة ، ولايقترب منه أحد . تعطيه أمه الطعام من الطاقة ، ويأكل ويشرب وينام وهو مربوط . وبقى «لنقو» فى السجن أياماً طويلة، وليالى كثيرة ، وكان يقضى وقته فى الغناء بصوت جميل ، يستمع إليه الحراس ويعجبون ويقولون :

« كيف لهذا الرجل الغليظ الشبيه بالحيوان، أن يكون صوته رقيقاً عذباً، كهذا الذى نسمع ؟. »

وأشاعوا الخبر فى المدينة وقالوا :

« صوت «لنقو» غير قلب «لنقو»، الصوت زهر ، والقلب حطب . »

واجتمع الناس خارج السجن ليسمعوا غناء «لنقو» . ويقترب بعضهم أحياناً من الباب، ويسأله أن يغنى لهم القصيدة الفلانية، وكان «لنقو» لايرفض طلباً ، يغنى كما يشاء الناس ، فقد كان الغناء تسليته الوحيدة فى وحشته، وسجنه ووحدته ، وكان يؤلف القصائد ، كلما خلا لنفسه ليغنيها بصوته .

وكانت قصائده كلها حزينة طبعاً، لأنه كان يسكب فيها أحزانه على حريته التى ضاعت ، وأذرعه القوية التى كبلت فى الحديد ، ولكن الناس كانو لايفهمون معناها جيداً ، لأنه كان يغطى حزنه هذا بالغناء ، والغناء فرح فى عرف الناس . الكلمات كانت مغطاة بالحرير وهى من تحت صلبة كالرصاص .

شخص واحد كان يفهم هذه القصائد ، هى والدة لنقو ، لأنها ربته وتعرف طريقة كلامه ، وكانت خادمته تفهم أيضاً ، معنى هذه القصائد الباكية فى الداخل ، المشجية فى الخارج . كانت خادمته التى رعته صغيراً تعرفه سكوتاً لايتكلم ، ورأته كبيراً كله عنف وسخاء .

الكلام لطيف ، والصوت حلو . لكن الحزن السدى واللحمة .« لنقو » طبعا متكبر لايحب أن يرى الناس جروحه . لاولايحب أن يرى الناس مكارمه شأن كل رجل كبير . جراحه له ، مكارمه له ، ولادخل للناس . يحيا حياته فى هدوء الواثق من نفسه .

وفى يوم من الأيام مرضت الأم فأرسلت الخادم بقفص كبير من

الطعام ، ولما رأى الحراس الأكل الشهى ، من دجاج ولحم وخبز ، وقفوا للخادم فى الطريق وأخذوا القفص منها وأكلوا الذى فيه إلا قليلا . وبكت الخادم وهى تنظر لسيدها القوى ، كالأسد فى القفص يأكل الفضلات. يأكل هذا الذى بقى ، أكل الجوعان ، ويرفع يديه المقيدتين للسماء ويقول :
« شكراً لك يارب ، على كل شئ ، وأى شئ . »

وخرجت تلعن الحراس وتدعو لسيدها بالفرج القريب والتوبة النصوح إن جاء الفرج .

وبينما هى واقفة خارج غرفة سجنه، تجمع ثوبها ، ناداها «لنقو» من الطاقة وقال لها : « إسمعى كلمى والدتى أن تخبز لى كعكة كبيرة غداً ، وأن تضع لى فيها مبرداً، سأقطع بالمبرد هذا الحديد حول عنقى، وفى يدى وفى رجلى ، سأقطعه ولو فى سنة ، ثم أقفز للطريق العام ، أزحف فيه كالثعبان وأتسلق البيوت ، وأنظر يميناً وشمالا ، أرى الدنيا حوالى، أشم عبير الحرية. نسمتها العذبة . »

قالت له الخادمة إنها قد فهمت ، وطلبت إليه أن يسكت كيلا يسمع الحراس ، فقال لها : « أحملى تحياتى الطيبة لوالدتى ، وقولى لها هذا الكلام الذى قلته لك ، لاتنسى كلمة مما أقول . »

* * *

ووصلت الخادم البيت وألقت بالقفص وجرت لسيدتها حيث كانت داخل البيت ،ورددت على سمعها كل كلمة سمعتها من سيدها «لنقو»،ولم تضع السيدة الحزينة دقيقة من الوقت، المبرد كلمة كانت تطن فى رأسها طنين النحل، المبرد، المبرد

وذهبت للدكان وبدلت منه كمية كبيرة من الحبوب ، بكمية أخرى من الكاكاو ، وذهبت لدكان آخر ، فأعطت سيد الدكان كمية أخرى من الكاكاو وأخذت منه مبرداً كبيراً . ورجعت البيت وجهزت فى الليل قطعة من الكعك ووضعت فيها المبرد . وفى الصباح قالت للخادم : « أسرعى يا إبنتى . كل ساعة تضيع منا تضيع من عمر لنقو . ساعده الله . آمين . ولكن يارب غير قلب «لنقو» وأجعله يحن ،لايضعف لكن يحن. أعطه قدراً من الحنان

مثلما أعطيته القـوة . »

وأراد الله أن يرد الحرية لابنها لأن الحراس ، أخذوا القفص وأكلوا كل شئ فيه إلا الكعكة . إمتلأت بطونهم من اللحم والدجاج ، فتركوا الكعكة كما هى ، وتناولها «لنقو» من الطاقة وأكل وشبع هو الآخر . وجلس هادئ البال ، يشتغل بالمبرد ، يطنطن ، يغنى .

وبعد أيام جاءه أحد الحراس من الطاقة والدموع فى عينيه فسأله «لنقو» إن كان قد فقد عزيزاً لديه فقال له ، يهز رأسه :

« إن أهل شانقا قد إتفقوا على قتلك ، إنهم لايطمئنون على حياتهم وأنت حى ، وقد فكروا كثيراً ، ثم قرروا الخلاص منك مرة واحدة ، كيلا تهـرب . »

سأل لنقـو :

« متى يقتلـوننى ؟ » .

قال الحارس :

« غـداً والله . »

قـال لنقـو :

« لاتحزن يا أخى على رجل مثلى . فقط تكرم على بشئ ، إن كنت حقاً حزيناً على . »

قال الحارس :

« أى شـئ ؟ » .

قـال لنقـو :

« أريد أن أستأذن من كبار أهـل شانقا ، وأستسـمح والدتى . أرجو أن تناديهم ليأتوا هنا فى فنـاء السجن لأتكلم معهم من هذه الطاقة . »

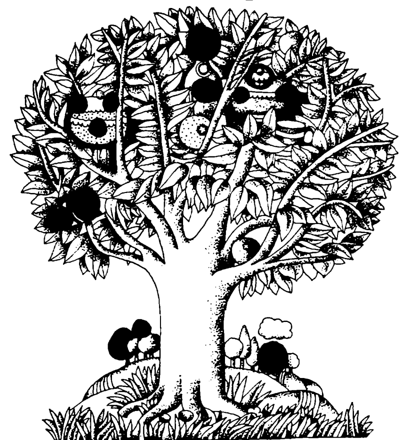
وفى اليوم التالى إمتـلأ فناء السجن بالناس صغارهم وكبارهم ، وجاءت الأم معهم تصحبها خادمتها الوفيـة وأطل عليهم «لنقـو» من الطاقة ، وقال لهم :

« أنا لا أريد أن أموت قبل أن أودعكم بغناء ، أبكى فيه على نفسى ، وأرجو أن تحضروا لى طبلة ، وقيثارة ، وصفارة . ولن يستطيع أحد أن يبكى على لأنى الوحيد الذى أعرف نفسى . وجرى الصبيان إلى المدينة ، ورجعوا

سريعاً يحملون هذه الآلات . فناول «لنقو» كل آلة لواحد يعرف كيف يعزف عليها وشرع هو يغنى من الطاقة والناس فى طرب شديد ، حتى إندمج بعضهم فى الغنـــاء ، وجعلوا يرددون معه بعض أبيات القصائد ، وكان «لنقو» طول الوقت، يشتغل بالمبرد وأوشك على كسر القيود والقوم كلهم يغنون معه وقد إنسجموا . يرددون الغناء ، وهم ذاهلون ، وهو يغنى ويعمل بالمبرد فى آن واحد . .

وفجأة وقع باب الغرفة، وخرج منها «لنقو» طويلا عريضاً بأكتاف، وصدر . فلما رآه الناس نسوا الغناء والطرب وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً منه . وجرى واحد منهم للخارج ، ولم ينتظر الباقون ، جروا كلهم وراءه تتصادم أجسامهم . ووقف «لنقو» ينظر إليهم يجرون أمامه كالقطيع ،إلا أمه وخادمه . ذهب إليهما ، وقبل يدى والدته وقال لها :

« نلتقى قريباً إن شاء الله ، أذهبى لبيتك. » فبكت الأم ولم تقل شيئاً لأنها تعرف أن الكلام لافائدة فيه مع «لنقو» إذا اعتزم أمراً. وراح «لنقو» إلى



الغابة وانتشر الذعر مرة ثانية فى البلد واجتمع الناس ، وقرروا أن يقتلوه بالحيلة، لابالقوة. فإدعى جماعة من الشباب أنهم أصدقاؤه ، وكانت جماعة ذكية ماهرة . قالوا له يوماً من الأيام ، وهم معه فى الغابه : « أيها السلطان

هيا وليدع كل منا أخاه للطعام . »
فقال لهم « لنقو » :
« أنا رجل فقير لا أملك شيئاً فى هذه الغابة » قالوا له :
« لاتحزن نحن نطعمك من ثمار هذه الشجرة العالية وأنت أيضاً تطعمنا من ثمارها. فقبل الدعوة ، وإتفقوا على أن يتسلق كل واحد ليقطع الثمار ويلقيها على الأرض ليأكل الباقون .
وفجأة أدرك « لنقو » أن هناك مؤامرة ضده ، كيف يطمئن لقوم قتل هو أهلهم ،وأدرك أنهم سيطلبون إليه أن يتسلق الشجرة حين يحين دوره ، ويرمونه بالرماح وهو على الشجرة فيقع قتيلا ، ولكنه سكت ولم يقل شيئاً ، حتى قال واحد منهم :
« الآن جاء دورك فتسلق الشجرة وأقطف الثمار لنأكل كما أكلت أنت .» قال لهم :
«لاضرورة لذلك ، لن أتسلق الشجرة ، ولن أحتاج لذلك ،سأعطيكم الثمار وأنا هنا على الأرض . »
فضحكوا من هذا الكلام وقالوا له :
« كيف ؟ »
فأخذ رمحه وجعل يضرب الثمر فوق الشجرة ، فنزلت كمية كبيرة . وجلس الجماعة يأكلون ، وهم فى حيرة لايعرفون ماذا يفعلون . قد أفسد عليهم «لنقو» خطتهم ، واعترف واحد من الجماعة وقال له :
« أيها السلطان ، أنت رجل ذو عزم حديد ، ولم نقدر على خداعك ، لاحيلة لنا معك بعد الآن فيما أعتقد . »

* * *

ورجعوا إلى أهل شانقا وأخبروهم بما حدث فإجتمعوا يتشاورون بينهم مرة أخرى ، وسأل زعيمهم :
« من يقتله منكم ، وينقذ البلاد من شره ؟ » .
ووقف رجل عجوز حكيم وقال للمجتمعين :
« إن شخصاً واحداً هو الذى يستطيع قتله.» ولما سألوه عن هذا الشخص

الفريد، قال : « إبن أخيه . »

فأرسلوا إليه فى الحال ، وجاء الإجتماع . قال له الزعيم الذى يقود الحركة: « أذهب أيها الشاب وأسأل والدك عن طريقة تقتل بها عمك. إن أهل البلد قد قرروا أن يختاروك أنت سلطاناً علينا بدل عمك، فقد عاث فى الأرض فساداً ونشر الذعر والرعب فى النفوس كما تعلم، لانريد سلطاناً إلا أنت فأسأل والدك، وأرجع للاجتماع بسرعة. فقال الشاب: « سأنظر الأمر، وأتكلم مع والدى . » ثم غاب قليلا وعاد ليقول لهم إن أباه قد ترك له الأمر ليحاول وحده ويرى مايستطيع عمله . فقال له المجتمعون :

« حسناً أرنا قدرتك » .

* * *

ذهب الشاب للغابة ووجد عمه لنقو جالساً تحت الشجرة، يعزف على قيثارته ، فسلم عليه ورحب به عمه ، ثم سأله عن سبب مجيئه ، فإدعى أنه أتى الى الغابة ليطمئن على صحته وكان لنقو يعرف كل شئ . فقال له :

« عبث وكذب ، لقد خدعك أهل شانقا وأنت جئت لتقتلنى . »

فأنكر وأقسم أن أحداً لم يخدعه ولم يكلمه ، ثم سأله فجأة :

« وهل هناك مخلوق يقدر عليك .» فضحك «لنقو» طويلا وقال له :

« بسيطة ، إبرة نحاس فقط . »

ولم يصدق إبن أخيه كلامه فقال «لنقو» ، وهو يسخر من الشاب ويضحك : « إن أية طعنة فى السرة بإبرة نحاس تكفى » . فأظهر دهشته وإستأذن فى الذهاب. وجاء يحمل الخبر الغريب للمدينة ، فقال له زعيم القوم « إن التجربة لاتضر » .

وأمر بإبرة نحاس، فأتى بها أحد الخدم . فسلمها للشاب وقال له :

« أسرع ولاتضع دقيقة . أقتله لتجلس أنت على عرش شانقا. »

فأخذ الشاب الإبرة وذهب للغابة . ووجد عمه مستلقياً على ظهره قرب الشجرة، يعزف على القيثارة ويغنى ، فجلس حتى أخذ عمه النعاس. ومشى الشاب فى هدوء نحو سرة عمه . وأنفذ فيها إبرة النحاس. فصحا «لنقو» من شدة الألم وحمل نفسه حملا، لايستطيع المشى على قدميه ويترنح ، ووصل

إلى البئر وقوسه ورمحه تحت إبطه وإهتز يميناً وشمالا ثم وقع .

*

وفى الصباح جاء الناس يسقون ، ولما رأوا «لنقو» من بعد، راكعاً جنب البئر كمن ينظر داخلها ذعروا وجروا لأنهم حسبوه حياً، وجعلوا يصرخون ويصيحون .

وخرج الناس من المدينة يستطلعون الخبر ، فلما عرفوا أن « لنقو » مازال حياً، هب بعضهم للبئر للتأكد ووجدوه راكعاً جنب البئر، قوسه ورمحه تحت إبطه ، فعادوا للمدينة وتأكد الخبر الذى أتى به السقاة أول النهار . فأرسل زعيم الجماعة للشاب وقال له :

« لقد كذبت علينا يا شرير . »

وإنقض عليه بعض الشبان وكسروا رقبته لأنه خدع الناس ولم يقتله .

ومضت ثلاثة أيام لايقرب أحد من البئر . فهلكت الماشية وعطش الناس فذهبوا لوالدته . وقالوا لها :

« إسمعى أيتها العجوز . إما ان نقتلك أنت . أو تكلمى ولدك ليبتعد عن البئر . »

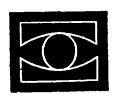
فذهبت الأم للبئر ولم يتحرك إبنها. ثم لمست كتفه وهى تغنى قصيدة من قصائده الجميلة ، فوقع كالحطبة اليابسة عند قدميها ، جثة باردة . فصرخت تولول حينما عرفت أنه مات .

ورجعت الى البلد وأعلنت الخبر فخرج الناس ورأوا بأعينهم أن «لنقو» مات .



عفار

نصيب الاسد



عفار

في الشمال الشرقى من « أثيوبيا » تقع بادية « الدناكل » كما يطيب للاثيوبيين أن يسموها و« عفار» كما يطيب لأهلها أن يسموها، وتعنى الكلمة فى لغة أهل عفار معنى يمثل كبرياء هذه البادية القديمة قدم التاريخ . تعنى « الناس الوحيدين »،« عفار » هم القوم الذين لاقوم إلا هم فى الإقليم. بل فى الدنيا كلها، وقد عرفوا بالبأس الذى يثير الرعب فى نفوس مجاوريهم من الناس، لأنهم كأهل البوادى؛ يحترمون أنفسهم إحتراماً يقرب من الزهو . وتخاف شدتهم قبائل الأحباش المجاورة، والتقراى، صوب الشمال، والجنوب . وقد إختبر بعضهم البعض فى حروب القبائل فى الزمان القديم .

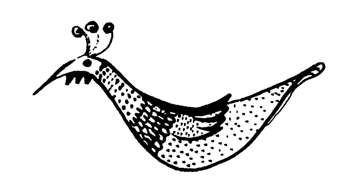
وإن الشاب فى عفار لايعد رجلاً إلا إذا قتل عدواً واحداً على الأقل فى حياته، ويحمل بضعاً منه فى كفه يفاخر به أقرانه، إذ لامكان للضعيف فى عفار. وتبين لك القصة التى ننقلها عنهم وكثير من القصص التى يتداولها الناس هناك ، هذه الصفة الغالبة فى ذلك المجتمع ، الذى كان حتى عهد قريب يعيش مع رمحه وسنانه عيشة ساذجة، كعيش أهل البادية عندنا، ينتقلون من مكان لآخر تنقلاً متصلاً يستحيل معه أن يقتنى الواحد شيئاً ذا بال ، أو يتعلم إلا قليلاً من أصول دينه، وذلك عن شيوخه الذين مازالوا كعهدهم فى القرون الوسطى ، يعبرون البحر الأحمر إلى زبيـــد فى اليمن ، يقضون السنين الطويلة يحفظون القرآن الكريم وأصول الدين .

ولكن عفار لم تبق طويلاً هكذا، فقد زحفت اليها يد الحضارة الآلية الحديثة منذ سنين قليلة، وإنك ترى الآن أسراً بأكملها ، تحمل متاعها على إبلها الصابرة فى طريقها إلى شواطىء نهر الحواش، لتعمل فى حقول القطن ، التى شرعت شركة « متشل كوتس » تخططها على النحو الذى نعرفه نحن فى الجزيرة ، وكان الحواش نهراً من أنهار أثيوبيا الكبيرة ، يندفع فى جبالها فى الوسط الجنوبي، يلتقط فروعاً صغيرة عدة فى طريقه سمى من أجلها الحواش ، أى الذى يحوش ويجمع . كلمة عربية بقيت من العصور التى كان فيها للمسلمين فى تلك الأجزاء دويلات صغيرة منها دولة عفار . وكاد نهر الحواش أن يتبخر ماؤه، فإنك تراه جدولاً عند «تنداهو» فى منتصف الطريق بين « عصب » و « دسى » ولن يقع هذا بعد الآن وستتجمع المياه لتسقى

الأرض ، فقد أسرتها الآلات وخزنتها ووجهتها حيث ينبغى أن تتوجه وتفيـد .

ومما هو جدير بالذكر أن جماعات من السودانين جاءت أيام حرب التحرير فى أثيوبيا أو من قبل أيام حروب آل عثمان، وهى تعيش فى واحات هذه البادية من الدناكل ، فى رعاية سلطان يحرص عليهم حرصه على أهله ، ولو رأيته بينهم حسبته شيخاً من مشايخ العرب عندنا ، جبهته وتقاطيعه وطوله الفارع ولونه الأخضر وتقاه وورعه ، فجامعة الإسلام فى هذه الأقاليم البعيدة من أقوى الروابط ، والشيء الآخر الذى يشد هذه الجماعات المتفرقة إلى أهل البلاد هو أنهم يعملون فى أمانة وصدق كما يعمل السودانيون فى أى مكان يحلون فيه .

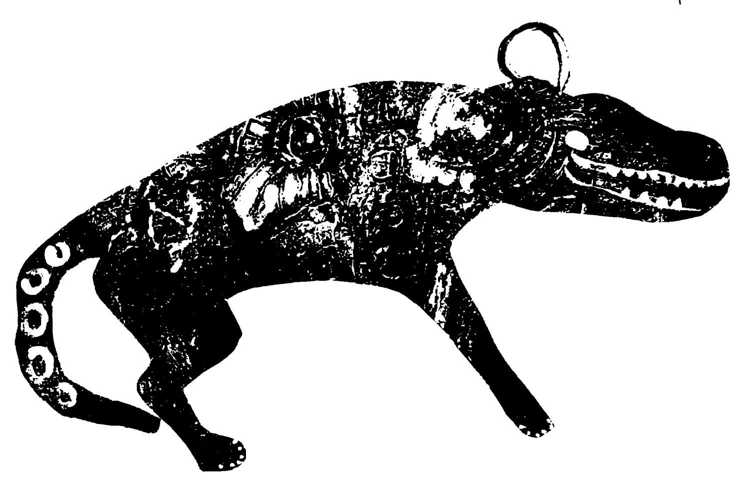
كنا جماعة صغيرة يوم حللنا ضيوفاً على السلطان ، ولكنه حين عرف أننا قدمنا من السودان أمر بناقة فذبحت لنا ، وأمر بالثريد الذى إشتهر به العرب من قديم ، وكانت ليلة بهية ، جلسنا حتى الفجر نتحدث ، فالقوم هناك إلا أقلهم ، يتكلمون اللغة العربية ، بلهجة أهل اليمن ، بجانب لغة عفار ، وعندما إفترقنا ضحى يومنا الثاني رجوته أن يتقبل مصحفاً كنت أحمله كعادتي فى حقيبتى ، فرضى أكبر الرضى عن هديتى هذه ، وأبرني أحسن البر ، فأهداني سكيناً من صنع ذلك الإقليم ، هى من أثمن ما أقتنى من تحف الآن ، وهى أقرب ماتكون إلى السكاكين الكبيرة التى يحملها السودانيون فى الشرق ، وفى هذه الليلة البهية سمعت قصة نصيب الأسد .



نصيب الأسد

تقوم مدينة « باتى » على تل كبير فى الطريق إلى ميناء « عصب » على البحر الأحمر ، وتحت التل فى الجهة المقابلة لصحراء الدناكل ، كان يعيش ضبع كبير السن ، ومعه أولاده التسعة . وكان الضبع الكبير قوياً فى جسمه لأن السن الكبيرة لم تؤثر على صحته ، ولكنه كان يحب أن يستقر طول النهار ، وطول الليل فى البيت ويقول لأولاده :

« أنا أحرس البيت ، وعليكم أن تخرجوا للصيد ، وتطعمونى وتسقونى معكم . »



كان من أولئك الآباء الذين ينصحون أبناءهم دائماً ، ويقصون عليهم حكايته حينما كان صغيراً مثلهم وكان يحدثهم دائماً عن مهارته فى الصيد ، وعن قلبه الحديد ، أيام شبابه ، ويطلب إليهم أن يكونوا مثله . قوة أعصاب وقدرة على العدو .

وفى يوم من الأيام خرج الأبناء التسعة للصيد ، وفى الطريق قابلوا أسداً كاسراً والقوا عليه السلام ، وأرادوا أن يذهبوا لطعامهم ، ولكن الأسد مط جسمه وفتح فاه ، وبسط يديه وقال لهم :

« تعالوا أيها الأصدقاء . تعالوا وإنتظروا دقيقة . »

ووقف الأبناء التسعة وماكانوا يتوقعون مفأجاة من هـذا النوع ! وإستمر الأسد يقول لهم :

« لقد حمت من أول الفجر حتى الآن ، ولم أجد شيئاً أصطاده ، وأرى أن نجمع صفوفنا ، ونصطاد معاً ، أنتم عندكم حاسة شم قوية ، وأنا يدى باطشة ، وإذا إجتمعنا سوياً لابد أن نصطاد ، ونقتسم الصيد بيننا ،شموا فقط ، والبطش على أنا . »

وما كان ممكناً أن يقول أحد للأسد لا . فقبلوا على مضض لأنهم تعودوا الصيد وحدهم ، ولايعرفون شيئاً عن طباع الأسد وأخلاقه ، وكان الحظ معهم فى ذلك الصباح . شم الضباع رائحة الصيد من بعيد ، فمشوا جميعا نحو الشجرة ، التى كانت تجىء الرائحة منها ، فوجدوا عليها كيساً ، يتدلى من غصن من أغصان الشجرة ، وفتحوه . كان فيه عدد من دجاج الوادى ، إصطاده أحد المزارعين ، وتركه هناك فى الهواء ليعود من المزرعة ويأخذ الدجاج فى طريقه للبيت ، ولما كان الكيس قريباً من الأرض مط الأسد جسمه الطويل وأمسك الكيس بيده ، ومشوا بعيداً من الشجرة ، وجلسوا فى ظل تل صغير وفتحوا الكيس ، فوجدوا فيه دجاجاً كثيراً . وقال الأسد :

« هل رأيتم الحكمة فى العمل الجماعى ؟ أقصد التعاون ؟ أنتم تشمون وأنا أضرب. » ووضع الدجاج أمامهم وقال :

« الآن نقسم الصيد بيننا » . وفتش على الدجاج ، وانتقى لنفسه أسمن تسع دجاجات ، ووضعها تحت يده ورمى واحدة ضعيفة هزيلة أمام الضباع التسعة ، فهاجوا وصرخوا ، فصرخ الأسد فيهم ، وتقدم نحوهم ثم قال بعد أن أقفل عينه اليسرى :

« لماذ تصرخون ؟ » .
لم يجب أحد منهم ، فقال :
« ألا تظنون أن قسمتي للصيد عادلة ؟ » .

ولم ينتظر جواباً من أحد ومشى لعرينه يحمل الصيد الثمين ، ومشى هؤلاء يحملون دجاجتهم الضعيفة الهزيلة ، إلى والدهم .

ورأى الضبع الكبير الدجاجة في يد واحد من أبنائه ، فصرخ فيهم يسبهم على الكسل والبلادة ، ويقول :

« هل هذا طعام ضبع مثلى ؟ ديك كله ريش وجلد وعظم ؟ . »

ومضى يقول لهم مثل هذا الكلام مدة طويلة . ويذكرهم بأنه ماشاب إلا لأنه كان يعمل لتربيتهم ، ثم تقدم واحد من أبناء الضبع وجمع أطراف شجاعته وقال له :

« أيها الوالد . لقد إصطدنا غذاءً طيباً لك ، ولكن نصيب الأسد كان كبيراً . » ومضى يقص عليه قصة الأسد، كيف لقيهم فى الطريق ، وكيف وجد معهم الدجاج ، ثم كيف قسم الصيد بينهم قسمة غير عادلة .

هنا غضب الضبع غضبة شديدة ، وسب أولاده سبا شديداً وقال لهم :

« ضعفاء جبناء ، لاتملكون من القوة مايملك أبوكم العجوز . »

وجعل يقول لهم هذا الكلام ويسب الأسد :

« غادر ، خائن . »

وخاف الأولاد أن يقع أبوهم مغمى عليه من الغضب ، فقد أكثر الكلام، وأخيراً أمسك الدجاجة الضعيفة بيده ، وقال لأولاده :

« تعالوا معى ، أمشوا ورائى. سأذهب لعرين الأسد ، وأعلمه درساً فى العدل ، سأرمى هذه العصفورة فى وجهه ، وأرجع بالدجاج ، فهو حق لنا ، وليس من حقه أن يأكل مال الناس . أحمدوا الله الذى أبقى لكم والدكم شجاعاً ، كما كان فى صباه قوياً لايخاف . . هيا ياشباب . هيا . »

ولما وصلوا عرين الأسد قال الضبع :

« أيها الأسد أريد كلمة معك . »

ولكن الأسد لم يرد ، وكرر الضبع كلامه، فزأر الأسد زئيراً شديداً، ثم خرج من العرين . خرج ومط جسمه وفتح فاه، وكان منظره مثيراً للرعب، ثم قال بعد أن ألقى نظرة على الضبع الكبير ، ثم نظرات على أبنائه التسعة :

« نعـم هل هناك شئ تريدون أن تقولـوه لى ؟ » .

فتنحنح الضبـع الأب ، وتنحنح مرة ثانية ، ونظر إلى الأسـد ، على باب عرينه ، ثم قـال:

« لاشئ أيها الأسـد . لقـد كلمنى أولادى أنكم خرجتم معاً للصيد ؟ »

« نعـم . نعـم . ومافى ذلك ؟ خرجنا معاً ، هم يشـمون وأنا أضرب. »

وجف حلق الضبع وهو يقول : « القسمة أيها الأسد لقـد كانت قسـمة ..».

وزأر الأسـد يستعد لكلام خطير ، فتقـدم نحوه الضبع ، وقدم له الدجاجة الوحيدة وهـو يقـول :

« جئت لأعطيك الدجاجة العاشرة ، هدية منى ليتحقق العدل كاملا . »

وعجب الأولاد ، ورأى الضبع العجب فى عيونهم ، فقال يحمى كبرياءه ويغطى خيبته :

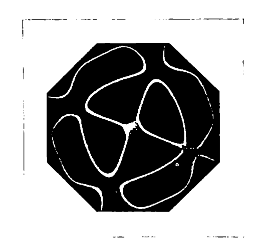
« لاتلقـوا بأنفسكم إلى التهلكـة. »

وخاف الضبع الصغير أن يجرح والده إن هـو إحتج بصوت عال فأسر لأخيه فى أذنـه « من استغضب فلم يغضب فهـو حمار » وتضاحكا .



كينيا

سادة الغابة





وقصة أنشرها ثانية لأنها تختلف عن كل القصص التي رويت لك، وهذه القصة من كينيا، ورواها شخص بعينه ، يعرفه الناس حياً دافق الحيوية ، مع أنــه قد ناهز الثمانين من عمره ، وما كان ممكناً لـ«جومو كنياتا» أن يعبر عن آرائه لأهله، فأكثرهم لايقرأون ولايكتبون وكان عليه أن يوقظ قومه ، ليستخلصوا حقهم الذى ضيعه إستعمار ذو حدين ، تعرضت له كينيا ، منذ أوائل هذا القرن ، إستعمار يتمثل فى الأجانب الذين تولوا أمور كينيا ، يديرونها كما تشاء لهم وزارة المستعمرات فى لندن ، وإستعمار يمثله المستوطنون البيض الذين إستولوا على خير الأراضى فى كينيا، يفلحونها لنفعهم من ناحية ولنفع أهل المال فى إنجلترا من ناحية أخرى ، فقد كانوا يقترضون مايحتاجون إليه من مال من مصارف لندن بأرباح تقر بها عين الحكومة وعين من يؤازرونها من أهل المصارف. وقصة « سادة الغابة » التى ألفها «جومو» ورواها على أهله الليالى الطوال فى كل قرية، ترمز للطريقة التى إستولى بها المستوطنون الإنجليز على أرض كينيا، عزيزة مثمرة تنتج الشاى والبن والسايسل ، وتربي الأبقار والأغنام ، وكلما مضى عام على الكينيين أحسوا بالحرقة على أرضهم هذه، التى أخذها «سادة الغابة» على النحو الذى ترويه هذه القصة التى تمثل الواقع الممزوج بقدر من الخيال يعين السامع على تتبع حوادثها ، قصة وجدت نفسها اليوم ، فى كل مختار من مختارات الأدب القصصى والشعبى فى القارة أينما جمعها الناس فى لندن أو باريس أو ابادان أو كمبالا . ويكتب مثلها «جيمس نقوقى» وغيره من كتاب الرواية فى كينيا المعاصرة .

وليس «كنياتا» قصاصاً، وإن كنت أعتقد أنه يملك المواهب، فهذه وغيرها من آثاره القصصية تنم عن قدرة فى الحكاية ، تحترمها إن كنت واحداً ممن يقرأون ويكتبون الحكايات لغرض مباشر مفهوم، ومـــا كان ممكناً لـ « جومو » أن يكتب شيئاً أو يأتي أمراً إلا وفى ذهنه خلاص بلاده من إستعمار المصارف فى لندن والفلاحين فى نيروبي .

وهب نفسه منذ وعى الحياة لنداء النضال الذى بدأه ، قبل أن يولد بعض القادة الشباب فى أفريقيا الحديثة ، بـــدأه سنة ١٩٢١ . وكان فى الثامنة والعشرين من عمره ، لأنه ولد فى نهاية القرن الماضى حوالى سنة ١٨٩٣ . ودخل جمعية قبلية أسسها مصلح إسمه « هارى توجون » لايعرف الناس كثيراً عنه ، وفى ثلاث سنوات أصبح عضواً فى تلك الجمعية ، وعرف زملاؤه مواهبه العظيمة فى التنظيم الحزبى ، وطلبوا إليه أن يحرر جريدة الجمعية، فتولى شئون الحزب وشئون الجريدة ، وتفرغ لها وللسياسة ، لايعمل شيئاً آخر ، وكانت جريدته ناراً حامية على الحكومة ، وعلى المستوطنين . كان يهاجم فيـــها بطاقات العمل ، التى إخترعها المستوطنون ليعمل الأفريقيون فى حقولهم التى إنتزعوها منهم بأجر زهيد ، ودراهم لاتسـمن (٩٠٠ مليم فى الشهر) وكان يقض مضاجع الحكومة حين هاجم نظام الضرائب ، وكانت باهظة إن قيست بما يكسب الناس (٥٠٠ر١مليمج فى السنة) ، وكان لايفتأ يطالب بـــرد الأراضى للأهلين التى أخذت عنوة منهم ، ولكن الحكومة،والمستوطنون معها،كانوا لايلقون بالاً لما يكتب ، فقد كان ضئيل الشأن فى أعينهم ، وكأنه يصرخ فى واد لأن معظم قومه لايقرأون ولايكتبون ، فكان يكتب لهذه الفئة القليلة التى نزحت لتعمل على الخط الحديدى بين ممباسا على ساحل المحيط إلى يوغندا فى الداخل ، واتخذت نيروبى مقراً لها . بعد عام من إشتغاله بتحرير المجلة ، سافر إلى لندن ليعرض على المسئولين قضية الأراضى فى بلاده. وكان طبيعياً ألا يلقاه مسئول ، فقد كان واحداً من مئات الأفريقيين ، لاميزة له ، وقضى عامه كله يتحدث إلى أحرار الإنجليز ، كما كان يفعل «محمد فريد» و«بلايدن» فى أوربا ،ولم يلق هناك شيئاً يعينه على أمره،فرجع إلى كينيا،ليحمل أنباء فشله إلى الذين كانوا يعملون معه ، ثم عاد إلى لندن فى عامه القابل سنة ١٩٣١ ، وكانت رجعة ذات أثر فى تاريخ كينيا ، وفى تاريخ الحركات الوطنية فى أفريقيا السوداء إذ أقام ستة عشر عاماً يدرس فى المدارس وفى الجامعات ويطوف على الصحف والأحرار ، يشرح قضية بلاده ، ويعمل فى حقول الزراعة حين تضيق ذات يده،ويتعرف على الحياة فى بريطانيا ، ويحاضر فى المحافل العامة وفى الجماعات الصغيرة ويطلب العون لبلاده وإشتعلت نار الحرب العالمية الثانية ، وتدفقت جموع

الجنود السود والطلاب على بريطانيا وتغير المناخ الفكرى كله لقاء الحركات إلاستقلالية ، فإلتف حوله الطلاب واتخذت أراؤه طريقاً جديدة . لم يعد يكتفى بالعون من إنجلترا والاشتراك فى الحكم مع الإنجليز ، بل طالب بإستقلال بلاده كينيا ، وإستقلال البلاد الأفريقية الأخرى .

وصار «كنياتا» رجلاً غير الذى عرفه أصدقاؤه القليلون. لم يعد واحداً من مئات الأفريقيين لاتميزه ميزة ، وأصبح معروفاً لدى الدوائر الجامعية والعلمية فى بريطانيا ، وأعجبت به حين نشرت له المطابع كتابه المشهور «لقاء جبل كينيا» وهكذا صار «جومو كنياتا» مرجعاً فى عالم وصف الإنسان ، وقد ذكاه عالم حجة فى علم وصف الإنسان هو الأستاذ «برونلاو مالينوسكى»وقدمه للعلماء والباحثين ،وكتب له مقدمة كتابه الذى أعده كبحث لينال به درجة علمية فى جامعة لندن ،وقدإعتصر « كنياتا » بحثه إعتصاراً من دمه وثقافته فى صباه الأول ، فقد نشأ واحداً من صبيان الكيكيو ، يرعى غنمه مع أغنامهم ويحضر حلقات السحر ، التى كان يديرها جده ، فقد كان طبيباً بلدياً « مندوموقو » كما يعبرون ، واشرب حب هذه القبيلة ، حتى دافع فى كتابه عن أديانها القديمة وعاداتها حتى الختان . ولم يترك معاقل القبيلة إلا بعد عشر سنين من مولده ، ليدخل مدرسة من مدارس المبشرين ، ولم يتحمل الحياة فيها ، فهجرها ليعمل خادماً فى منزل المستر «كوك» وكان «كوك» هذا الذى لايعرفه أحد اليوم يد القدر فى حياة الصبى .

أخذ بذكائه ، فألحقه كاتباً بمكتبه فى نيروبي ، حيث عمل مدة طويلة لقى فيها غيره من شباب الكيكيو وعلى رأسهم «هارى توجون » الذى كون جمعية الكيكيو المركزية ، منطلق الحياة السياسية ل «جومو كنياتا» .

من نيروبي لمانشستر . من مسرح صغير لمسرح كبير ، من مسرح كينيا إلى مسرح أفريقيا ، كل هذا أتاح لهذه الروح التى لاتستقر مالم يتح لأفريقى غيره ، ذلك لأنه وقد خبر الإستعمار ووسائله الذكية الغادرة ، جمع إليه زنوجاً من كل بقعة فى أفريقيا ، وتكون من هذا الشباب المتطلع سنة ١٩٤٥ مؤتمر مانشستر الذى أثر فى التاريخ الأفريقى المعاصر ،وكان «كنياتا» سكرتيراً لهذا المؤتمر ، وكان يعينه على أعمال

السكرتيرية شاب لم تهدأ حماسته للقضايا الأفريقية إلى أن هوى منذ سنين قليلة. أعنى «كوامى نكروما». وكان معهما مجموعة أحدث كل واحد من أفرادها حدثاً فى تاريخ أفريقيا الحديث . « جورج بادمور» الكاتب الذى أفنى نفسه على محراب أفريقيا « وبيتر أبراهـام » القصصى الذى وضع مجتمع جنوب أفريقيا على خارطة المجتمعات العالمية ، وغير هؤلاء كثيرون . وإن كان عدلاً أن نذكر « دى بوا » شيخ القومية الأفريقية الذى كان الأب الروحى للمؤتمر . وقد مات بعد التسعين جالساً إلى مكتبه فى أكرا . وهو يعمل من التاسعة حتى الثانية مشرفاً على الموسوعة الأفريقية . وكانت حلماً من أحلام شبابه . وقد وفر له المال تلميذه الرئيس«نكروما»على عهده وهو رجل عرف بالوفاء لقدامى أصدقائه ، ممن عمل معهم أيام الشباب فى الولايات المتحدة وفى بريطانيا. ومن مؤتمر مانشستر أخذ «كنياتا» طريقه الجديدة. وفيه أدرك أن الإستقلال يؤخذ عنوة كما فقد عنوة ، وعرف أن الخطب والمقالات فى بريطانيا لن تكفى وحدها. وعليه أن يوقظ قومه، وأن يلهب حماسهم، وأن يرد لهم كبرياءهم. وقومه فى كينيا لن يجديهم عطف الأحرار خارج كينيا، وعاد إليها سنة ١٩٤٦ وشرع يدعو لإستقلالها ساعة وصوله ، ويذكر أصدقاؤه الذين لقوه فى مطار نيروبي أنه قبل أرض كينيا أول ماوطئتها قدماه .

قبلها ليرمز إلى حبها وإلى رسالته . ولم تمض شهور قليلة حتى كان رمز النضال فى المستعمرة ينخرط الناس فى منظمته ، التى أنشأها لكينيا كلها هذه المرة لالقبيلة فحسب ، فقد خبر فى رحلته الطويلة أن القومية أولى من القبيلة ، فهى الدرع الأقوى ، ومجالها فيه متسع لذوى المواهب، وقد أنشأ « الإتحاد الأفريقى الكينى » ، الذى شرع يطالب بالتمثيل المكافىء فى الجمعية التشريعية، ورد الأرض لأهلها، وإلغاء القوانين التى تجعل الرجل الأبيض سيداً على الأسود فى داره ، وكان معتدلاً فى قوله، معتدلاً فى سلوكه، يرجو أن يصل إلى غاياته بالتفاهم ومنطق المنفعة المشتركة بين بريطانيا وكينيا، و هنا تصمت الحوادث، لاتتكلم، لايعرف أحد السر الذى يحمله «كنياتا» فى صدره سر حوادث الماوماو الرهيبة .

لايعرف أى دور لعب هذا الرجل فى تنظيم هذه الحركة التى قتلت النساء والأطفال والرجال وحرقت الزرع والثمر . حين إندلعت

سنة ١٩٥٢ وسيق «جومو» ورفاقه إلى محكمة أدانته بإدارة هذه الحركة القاسية . وزجته سبع سنوات فى السجن . وثلاثاً أخرى فى المعتقل وعاد بعدها إلى الحياة السياسية ، كما كان بعد أن فعلت السنون فيه فعلها . وأثرت على قدرته ؛ حيث لم يتحدث مع أحد فى سجنه ومعتقله. ويقول الآن إن سئل: أنه لم ينشىء الحركة القاسية. ولم يدرها كما إدعى جلادوه، وكان قد دافع عنه محامون جهابذة لهم فى دنيا العدالة مكان أى مكان . على رأسهم « بالم دت » الذى كتب كتاباً كاملاً عن هذه المحاكمة الشهيرة. وسيبقى سر حركة الماوماو فى صدر «كنياتا» ليوم يريد أن ينير فيه السبيل . ولكن آثارها ليست بسر، فقد دفعت الحركة القومية فى كينيا دفعات . ماكان يمكن لها أن تقع لولاها .

واليوم يعيش « كنياتا » أخريات عمره سعيداً . لأنه يرى حلمه لأفريقيا يتحقق قليلاً قليلاً . حزيناً لأنه ماكان يحسب أن المصالح القبلية ، والمطامع الفردية والصراع على السلطان ستدفعه ليكون قائد حزب، وكان يرجو أن يكون قائد وطن، وقد رأيته منذ شهور وكنت أقرأ عنه، فإذا الذى تخيلته قريب من الذى رأيته .

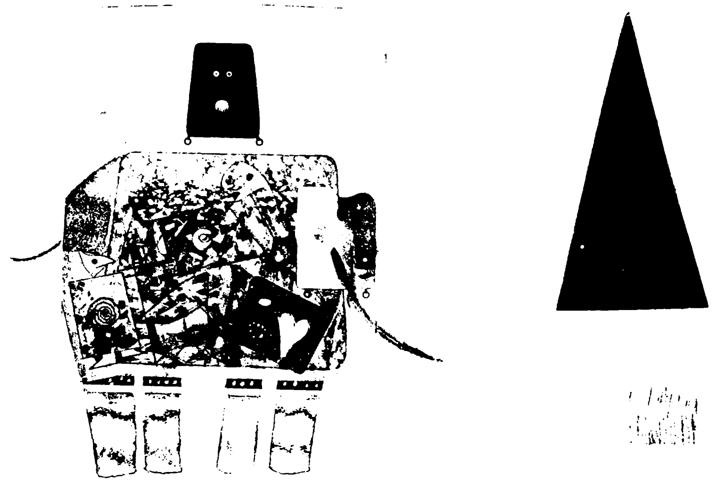
تتضاءل الناس أمام حضوره المريع . رجل لاكالرجال ، ضخامته ونفاذ عيونه البارقة الخارقة . ذقنه المعشوشب التى قلدها الشباب الأفريقى فى كل مكان . خليط من البياض العاقل والسواد الفتى . وعكازته التى يحمل مثلها عدد من قادة القارة الشباب ، تمثلاً به، يتكىء عليها فى غير عجز أو وهن . وفى يسراه مذبة ، تكمل هذه الشخصية الغريبة . التى تيقظت إلى أساليب تلفت النظر وتثيره . لاتأنقاً وزهواً كما يقول الذين لايرون حسنة فى إنسان ، إنما أداة للتأثير على السذج من أهله ، يوم خرج صبياً لاحول له ولا قوة . يرود الطريق للإستقلال القومى فى القارة الناهضة .



سادة الغابة

في سابق الزمان عاش رجل فاضل مع فيل ضخم في الغابة . ونشأت بينهما صداقة ، وفي يوم من الأيام فتحت السماء أبوابها فنزل المطر ، وجرت المياه في كل مكان ، وقلعت الشجر ورمت الأكواخ . وخاف الفيل من الشلالات الجارية والأشجار الواقعة ، وجرى لصديقه في الغابة ، وقال: « ياأخي أنقذني . أنت هنا في طرف الغابة وكوخك على تل لاتأتيه المياه ، خلني أضع خرطومي في كوخك إلى أن تقفل أبواب السماء . »

كان الفيل يرجف من البرد . وعطف الرجل على حالته ، فقال له :



« أنت ترى أن كوخي صغير . فأدخل خرطومك ، ولكن برفق وبالتدريج . »

فقال الفيل : « شكراً ياصديقي العزيز . أنا لن أنسى معروفك وإن شاء الله أرد لك الجميل في يوم من الأيام . »

وأطمأن خرطوم الفيل في الكوخ فزحف برأسه ودخل ، فقال له الرجل:

« ماذا تعمل ؟ » ولكن الفيل لم يقل شيئاً . ودفع الرجل للخارج ورماه تحت المطر ، وقال له من الداخل : « ياصديقى العزيز أنت تعرف أن جلدى رقيق ، وأن جسمى ناعم ، وأنا لاأحتمل المطر . أما أنت فتقدر على المطر . لن يغير الماء جلدك . أبعد أنت فى الخارج إلى أن ينتهى المطر . »

فصرخ الرجل فإجتمعت كل حيوانات الغابة ، ووقفت تسمع الجدال بين الصديقين ، وجاء الأسد من بعيد يقول ويزأر فى المجتمعين « ماهذا ؟ ألاتعرفون أنى لا أسمح لأحد أن يعكر السلام فى المملكة ؟ » .

وخاف كل واحد ، وسكتوا جميعاً إلا الفيل فقد قال فى صوت بطئ مثل أصوات الكبراء : « سيدى. »

وسكت مدة . ثم تحدث كلمة كلمة مثل الكبراء : « لاتقلق . الأمن فى المملكة على مايرام . كنت أحاور صديقى هذا فى آمر الكوخ الذىترانى أسكنه . »

فقال الأسد : « لقد سمعت كلام السيد الفيل ، وهو من وزراء الغابة كما تعرفون وقررت تكوين لجنة من الكبراء والوزراء فى الغابة . ستدرس اللجنة هذا الموضوع ، وتعرض نتيجة درسها علينا .»

* *

وسكت الجميع ، وتلفت الملك يميناً وشمالا ثم قال للرجل : « أنا أهنئك على ذكائك . إن صداقتك لشعبى تسرنى جداً . لاسيما صداقتك مع زميلى السيد الفيل ، وزير الدولة الشريف ، ثم وأعلم أن اللجنة ستسمع كلامك كله ، وأنا واثق « متأكد » أن قرارنا سيرضيك . »

ولوح الفيل بخرطومه ينهى الكلام ، والحق بين على كل حال.

الفيــل يكون اللجنــة

وشرع الفيل فى تكوين اللجنة عملا بأوامر الملك وإنتهى إلى تكوينها كما يلى :

(١) السيد المحترم الثعلب رئيساً للجنة .
(٢) السيد الفهد سكرتيراً للجنة .
(٣) السيد الخرتيت « وحيد القرن » عضواً.
(٤) السيد الجاموس « فرس البحر » عضواً.

(٥) السيد التمساح عضواً.

وبلغ الرجل الخبر فأحتج على هذه اللجنة . كلها من كبار القوم ، زملاء الفيل . وليس فيها واحد من أصدقائه هو . فقال له القوم : « يارجل لاتخف على حقوقك . إن هؤلاء الكبراء من أنظف القوم يداً وعرفوا بالعدل والنزاهة طول حياتهم . وزيادة على هذا ، فإن الله إختارهم واصطفاهم ، ليدافعوا عن حقوق الضعفاء الذين لم يمنحهم الله بسطة فى الجسم وقوة فى المخالب والأنياب . إنهم يارجل رسل الله رب العالمين ، ولايمكن لهم أن يظلموا الضعفاء ، وعموماً الملك هو الذى يقرر الأمر . لاتتكلم كثيراً . ثم لتعلم أن من تريد أن يكون فى اللجنة من أهلك كلهم قوم أقل من هؤلاء فى العلم والخبرة .

« إنهم قوم غير متعلمين ، والعمل فى اللجنة صعب ، ويتطلب معرفة بقانون الغابة . أترك الأمر فى يد العارفين والقادرين ونم هادئ البال . »

وخاف الرجل وسكت ، ولم يعرف ماذا يفعل .

اللجنة تجتمع

ثم جلست اللجنة تسمع الأقوال ، ودعت السيد الفيل أولا . فدخل سيادته يختال بأنيابه البيض ، وقد دهنتها له زوجته بدهان لامع . سلم على اللجنة وقال فى هدوء كالكبراء : « ياسادة الغابة . القصة بسيطة ، ولاداعى لإضاعة وقتكم ، فأنتم تعرفون كل التفاصيل ، وتعرفون أنى الحامى الأكبر لأصدقائى المساكين . هذا الرجل صديقى ، ولكنه لم يفهم موقفى كما يجب. خفت على كوخه من الهبوب ودخلت لأحميه وأحمى كوخه . والمكان الذى جلست فيه كان خالياً غير مستعمل ومن واجبى أن أجعل ذلك المكان مفيداً ومنتجاً . إن صديقى لايعرف الفوائد الإقتصادية ، وهو رجل متخلف « متأخر » ولابد لى من مساعدته ولكنه أساء الفهم ، ولو كان أحدكم فى مكانى لما فعل إلا مثلما فعلت أنا . . . »

وتأثرت اللجنة بهذا الكلام الجميل ، وهز كل واحد رأسه دليل الإعجاب . ولكنهم دعوا السادة الآخرين ليسمعوا رأيهم فى القضية .

كلام الرجل مرفوض

ودخل السيد الضبع وقال : « إن كلام السيد الفيل وزير الدولة فى الغابة

كلام حق ، وفيه حكمة بالغة . » وجاءت الحيوانات الأخرى وقالت مثل هذا الكلام ، فنادت اللجنة الرجل ، وسألته رأيه فى الموضوع ، فقال :

« أيها السادة » ولكن رئيس اللجنة قاطعه : «يارجل . لاتخرج من الموضوع . تكلم فى الجوهر . لقد سمعنا القضية من عديدين كما رأيت ، وكلهم شرفاء . وكل الذى نريد أن نعرفه منك هو إن كان الفراغ الذى إحتله السيد الفيل يحتاج للتعمير « التصليح » أم لا ؟ هذه واحدة والثانية عليك أن تخبرنا إن كان هذا الفراغ قد ملأه أحد قبل مجئ السيد الفيل . جاوب بنعم أو لا » .

وبدأ الرجل يجاوب . قال لا . ولكن قاطعه الرئيس وقال: «لا . . إنتهى كلامك » ثم أعلن أن اللجنة سمعت الجانبين فى القضية وأنها ستتداول«تتباحث» بينها الآن وتبت « تقرر » فى الأمر بكل ذمة وأمانة . وإنفضت المحكمة .

قــرار المحكمة

وذهبت المحكمة لبيت السيد الفيل ، وأكلت هنالك أكلة طيبة . ووقف رئيس اللجنة يعلن القرار ، فقال : «يا أيها الرجل . إن اللجنة إقتنعت بأن السيد الفيل قام بكل واجباته المقدسة نحوك ، وبما أن مصلحتك تقتضى إستعمال الفراغ الموجود ، وبما أنك غير متعلم وغير راق لاتعرف كيف تستفيد من الكوخ فقد قررنا أن نعمل صلحاً بينك وبين السيد الفيل ، على أن لايضر هذا الصلح بمصلحة أحد الطرفين . » وإستمر الرئيس يتحدث فقال :

« والرأى هو أن يحتل « يسكن » السيد الفيل الكوخ ليصلحه . فهمت ؟ وقد سمحنا لك بالبحث عن موقع آخر تبنى فيه كوخاً جديداً قدر حاجتك ومن واجب اللجنة أن تحميك . أنت تحت حمايتنا من اليوم . لاتخف شيئاً بعد اليوم . »

وكان الرجل يسمع هذا الكلام وينظر إلى الأنياب والمخالب ، وكانت تتحرك أمام عينيه وتلمع ، وخرج ساكتاً فما فى اليد حيلة . ولكن المحنة ظلت وراءه .

المصيبــة تتكــرر

بنى الرجل لنفسه كوخاً آخر ، ولكن الخرتيت رأى الكوخ وإنبسط من موقعه وبنائه ، فجاء وأخرج الرجل وقعد مكانه ، وإشتكى الرجل للجنة

التى قالت إنها ستحميه وتدافع عنه . ثم قامت اللجنة وقعدت وقررت أن يسكن الخرتيت وأن يبنى الرجل كوخاً آخر . تماماً كما أمروا من قبل .

وبنى الرجل كوخاً آخر فإحتله السيد الفهد وقررت اللجنة نفس القرار ، وهكذا راح الرجل يبنى كل مدة كوخاً فيحتله واحد من سادة الغابة واللجنة تقرر ماقررت من قبل . وهكذا حتى سكن كل السادة أكواخاً بناها الرجل بذراعه وعرقه .

الرجل يجـد الحل

وجلس الرجل يوما يفكر فى حاله فقال فى نفسه ، لابد من طريقة لابد من حل ، ولكن ما الحل ؟

وفجأة تذكر أن جده كان قد قال له : «يابنى لاشئ يمشى على الأرض يستحيل إصطياده. » ومعنى هذا الكلام أن الواحد قد يخدع بعض الوقت ولكنه لايخدع إلى الأبد .

وفى الصباح شمر عن ساعده وبنى كوخاً جميلا قوى البناء ، أكبر من أى كوخ بناه من قبل ، وجلس جنبه ينظر ، لقد تكسرت أكواخ السادة حوله وإهتزت قواعدها من الإهمال ، وهاهو كوخه الجميل القوى .

وفى هذه اللحظة جاء السيد الخرتيت وجرى ريقه لما رأى الكوخ الجديد ونظر للرجل فى إحتقار ، ودخل ليمتلكه كما إمتلك الكوخ الذى يسكنه الآن، ولكن أسمع وأنظر . . .فهنا مفاجأة غريبة ! .

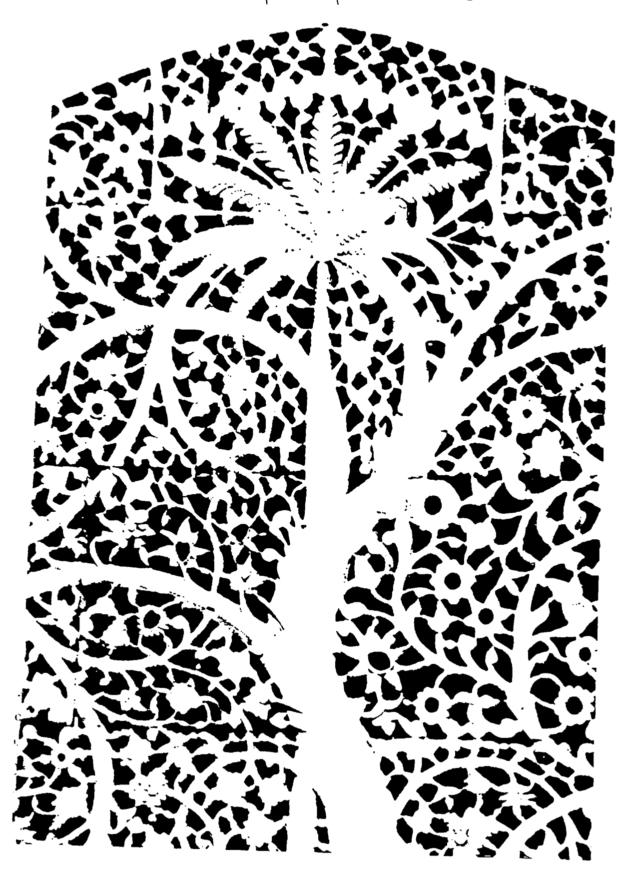
لقد وصل السيد الفيل قبله ودخل ورقد وجرى جدال وكلام بين السيدين الكبيرين كل واحد منهما يريد الكوخ لنفسه . وسمع السادةالآخرون بالخبر وجاءوا واحداً وراء الآخر : الفهد يطل من النافذة ، والضبع يصيح فوق السقف ، والأسد يدخل من الباب . والتمساح متمدد فوق السقف، والثعلب يقفز هنا وهناك ، والصياح والصراخ والعويل فى كل جانب ، ثم إستعملت الحيوانات أنيابها ومخالبها وسالت الدماء، وهنا جاءت فرصة الرجل .

وبينما السادة فى الضرب والركل والعض والقرص ، أشعل النار فى الكوخ فإحترقوا جميعاً ، وإحترق الكوخ وأمتد لسان النار إلى الغابة لايبقى سيداً ولايترك شجرة .

وجاء المساء والرجل ينظر إلى السماء حمراء من اللهب، ويشم رائحة لحم السادة يحترق .

ثم رقد على ظهره ينظر للنجوم وسط اللهب وهو يقول :

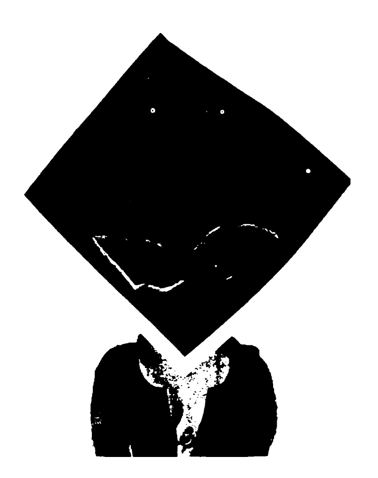
« ثمن السلام عزيز ومرتفع ، ولكن ما أجده من متعة وسعادة يشعرنى بأنى بذلت التضحية فى مقامها المعلوم .» ونام وهو آمن بعد ذلك .

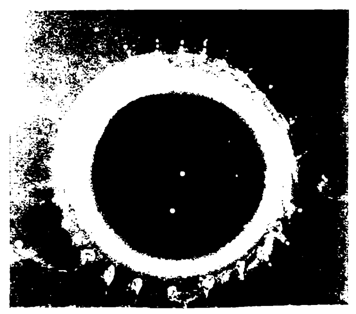


السودان

شهرزاد من بلدنا

سالي فوكس





السودان

شهرزاد من بلدنا

هذه القصص من أفريقيا ، عقدها قصة سالى فوحمر ، وهى شهرزاد من بلادنا نحن، من السودان الذى يقف قادراً متواضعاً، عبر الطريق بين أقطار القارة الناهضة ، ومنابع الحضارات الآلية الحديثة ، ويتأهب ليسترجع دوره القديم هذا كاملاً . كان ملتقى الثقافات والحضارات والأمم على عهد كوش ، والزمان طفل ، لايعرف إلا القليل مما يعرف اليوم . ظل السودان ألف عام ينقل الحضارات القديمة لأفريقيا ؛ أعنى حضارات الهند والصين ، وينقل العقائد الأفريقية إلى مصر القديمة . آلهتها وأساطيرها . ويرجح بعض الباحثين أنها الأصل فى آلهة مصر القديمة، والجذور لأساطيرها البديعة. وإليه يرجع الفضل فى نقل صناعة الحديد إلى القارة ، فقد تعلمه لامن مصر القديمة وحدها بل من الأشوريين أيضاً ، ويعد المؤرخون مجىء عصر الحديد للقارة ، أكبر حادث فى العهد القديم، وكان إكتشاف صناعات الحديد أكبر حادث فى آسيا الغربية موطن الأشوريين الذين أخرجوا كوش من مصر بقوة الحديد بعد أن إستقر لها الأمر قرناً كاملاً تدير الشئون فى وادى النيل كله ، منذ جلس ملوكها فى القرن الثامن قبل الميلاد على عرش مصر ، وخرجوا من طيبة يتبعهم العلماء والصناع والكهان ممن كرهوا البقاء فى ظل النفوذ الأجنبى ، وأعانوا بادىء الأمر فى «نبتا» على إقامة ملك قوى شامخ ، إنتقل آخر الأمر لمروى ، ولم يتصدع إلا فى القرن الرابع الميلادى ، حين إستسلمت للشقاق والنزاع وهان أمرها على المتربصين بها من ملوك أكسوم .

ولم يكن السودان رسولاً أميناً فحسب، بل كان أكثر من هذا بكثير . كان التجار والكهان والساسة من بلاد الحضارة فى ذلك الزمان الهند والصين ومصر القديمة، والبحر الوسيط، واليمن السعيد، كانوا يأتونها فيرون عقائد القارة الأفريقية ورموزها الدينية ، فيحملونها كلاً أو شطراً لأقاليمهم العدة ، وتأخذ مروى عنهم وسائل الزرع والحصد والصناعة ، تحملها إلى القارة فى كل صوب : فى الشرق المطل على المحيط الهندى ، وفى الغرب المجاور لبحيرة شاد ، وفى الوسط عند نهر زامبيزى . وكانت لذلك ثرية حتى

أسماها أحد المؤرخين المحدثين « برمنجهام أفريقيا » وكانت متعاقة حتى أسماها العارفون ببعض آثارها المعروفة « أثينا فى أفريقيا ». لم تكن تنقل حضارة الشمال نقلاً. كانت تطورها تطويراً، وتحدث أثرها فيها وتطبعها بشىء منها ، تؤفرقها إن شئت . تقلبها ذات اليمين وذات اليسار ، تضيف شيئاً هنا ، وتحذف شيئاً هناك ، لتصلح فى النهاية لأهل القارة ، وهكذا كانت تفعل بعقائد القارة . تحورها لتصلح لأهل الشمال . قلت كانت متعنمة . دعنى أضف ، وكانت ذكية ولها قدرة على حسن الإختيار .

وتقدمت ببلادنا العصور، فلم تتنازل عن هذا الدور . لعبته على أيام ممالك النوبة المسيحية ، حين انتهت كوش ، وكانت الباب للدين المسيحى ورعته فى القارة ، وإليها رجعت أثيوبيا غير مرة تطلب العون ، وقد شحب الدين عندها وذبل ، كما إستعانت بها القسطنطينية لتعمل على إرسال بطارقة يحفظون على الدين المسيحى رواءه وقد ذهل عنه الناس بطقوسهم القديمة. ثم لعبته مرة ثالثة حين إهتدت بهدى الإسلام وأقامت على قواعده السلطنة الزرقاء ، يتولى القضاء والتعليم فيها رجال من الشنقيط ، وشباب من رواق سنار ، فى الأزهر . ولعبته فى العصر الحديث ، إبان ثورة الإمام المهدى ، حين مدت يدها للعالم العربي ، والعالم الإسلامى . لم تنطو على نفسها إلا قرناً ونصف قرن هى عدة سنين الإحتلال الأجنبى ، مرة على يد محمد على وأبنائه ، وأخرى على يد « كتشنر » وأخلافه . سادتهم من أهل المال والجاه ومحترفى الدين فى بريطانيا ، إن أردت الحق ، فما كان الحكام هنا إلا موفدين من هؤلاء الذين كانوا يملكون الأمر فى بريطانيا .

* * *

تاريخنا كله إذن تاريخ تفتح على الدنيا وتحمل للمسئولية فى ثقة وقدرة وتواضع ، وقصة « سالى » التى ألخصها لك هنا من مصادرها الأفرنجيه ترمز إلى هذا الدور الوسط ، وتشير إليه مع تخليط فى أسماء الأماكن ، لايخطئه الواحد ، ولايمس طلاوة الحكاية . وإسمها فى هـذه المصادر « قصة خراب كوش » ولكنى إخترت إسم البطلة «سالى فوحمر» عنواناً لها ، فهى أكثر جرساً ، وأنا مولع بالجرس فى الكلمة ، وهى أقرب لقلب الصبيان ، والتخليط فى الأماكن والأسماء أمر يقع فى كثير من القصص والأساطير ، والدقة شىء تطلبه فى التاريخ ، وتفسد عليك الأمر كله إن طلبته فى القصة والأسطورة ، فالقصة متعة أولاً وقبل كل شىء، والأسطورة ظل تاريخ ، لاتاريخ.

وأنا أريد لأمتعك ، لا لأعلمك .

سمع هذه القصة عالم ألماني معروف فى التاريخ الأفريقى هو « فروبنيس ». سمعها سنة ١٩١٢ من جمّال كان يتنقل به فى غرب السودان ، وأثارت إهتمامه للشبه الشديد بينها وبين أسلوب الأساطير فى ألف ليلة وليلة من ناحية ، ولأنه كان قد قرأ كثيراً عن عادة قتل الملوك ، فى كثير من أنحاء العالم القديم . إن الذى فعلته « سالى » هو عين الذى إشتهرت به شهرزاد ، أراد الملك أن يقتلها ، كما قتل أخوات لها من قبل ، فثنته عن عزمه بالقصص المترابطة ، ترويها له ليلة بعد ليلة وتنتهى بجملة « وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح » والمسكين مشوق يعد ساعات يومه ليأتي المساء . وأنقذت بالقصص حياتها وحيوات العذارى فى المملكة . وهكذا فعلت « سالى » ، ولكن على نحو غير هذا النحو . نحو أملته طبيعة العيش فى البصرة ، وطبيعة العيش فى دارفور .

لم تكن « سالى » كما سترى فى القصة ، كأختها شهرزاد ، إلا فى معرفتها لمكانة الكلمة ولمكانة القصة ، وكانت تعرف سحر الحرف ، ورأت فى « فارلماس » الرجل الذى كان لايملك من أمر نفسه إلا القليل أداتها . فعملت على الإنتفاع بموهبته ، وأنقذت العذارى وأنقذت أخاها ، وفتنت به فإتخذته زوجاً حين عرفت فيه فناناً ، يسحر بالكلمة وبالصوت المنغم والخيال الأنيق ، ذى الجناح المذهب البارق .

ولم تتزوجه لترد جميله ، بل تزوجته لأنها أحبت فيه الفنان والرجل . كيف أتيح للناس فى غربي بلادنا إذن أن يتخذوا أسلوب شهر زاد فى القصة ، وأن يتحدثوا كما تحدث الناس فى فارس والشام والعراق ومصر ، البلاد التى أعطت العالم قصص ألف ليلة وليلة ، وقد خرجت أول ماخرجت من البصرة حيية تتلمس الطريق . كان « فروبنيس » يريد أن يعرف هذا ، وأن يعرف شيئاً آخر ، كيف إتفق وجود عادة قتل الملوك عندنا وفى سومر فى العراق مثلاً ؟ لقد أدرك ، وهو عالم خبير بالشئون الأفريقية وشئون شرقنا القريب ، أن السودان لم يكن بمعزل عن العالم فى أى عهد من عهوده إلا فى العهدين اللذين ذكرت ، عهدى الإحتلال . ولكن كيف تم هذا الإتصال ، كيف ؟ ماكان لعالم مثله أن يقنع باستقراء يقوم على أسطورة : لا لأنه يحتقر الأسطورة بل لأنه يأخذها مأخذ الجد ، لأن أية أسطورة فى الغالب

لاتقوم إلا على الحقائق التاريخية الصلدة ، يديرها فى الخيال أهل التخيل والرؤى والعقول والقلـوب الدافئة . هكذا فعـل « هومر » صاحب الإلياذة ، وفعل أصحاب المعلقات،وفعل « جوموكنياتا » فى القصة التى رأيت فى هذه المجموعة وخرج « فروبنيس » يبحث عن أجوبة ليستريح عندها . وذهب ينبش فى مكتبات العالم ، حتى أخذه مطافه لجزيرة صقلية، وعثر فى مكتبتها التاريخية على مفكرات رحالة آخر مؤرخ ، هو « ديودورس سيسلى » الذى كان قد طوف حتى أتي مصر سنة ٦٠ ق.م وبقى فيها ثلاث سنوات، يدرس ويسمع ويدون . قال « ديودورس » فى مفكراته إن على النيل الأعلى قوماً من الكهان كانوا يقومون بقتل الملوك قائلين إن النجوم قضت بقتلهم ، وكان هؤلاء يسلمون رقابهم لايسألون ، وقد ورثوا العادة ملكاً بعد ملك ، وجيلاً بعد جيل. وفجأة تغير وجه التاريخ فى تلك البلاد، يعنى بلادنا ، لقد ولى الأمر فيها ملك شاب أسمه « أرخاميس » ، وكان قد أرسله أبوه إلى مدارس الأغريق ، يتلقى علومهم وفنونهم الزاهرة على أيام « بطليموس » الثاني فلادلفس (٣٠٩ق .م . –٢٤١ ق.م) .

وعاد المليك الشاب مزوداً بفلسفات الأغريق ، وكان حتماً أن يتساءل . كيف أخضع قومه الحياة للنجوم ، وهى لاتقول شيئاً والحياة أثمن من أن تضيعها خرافة ، وأستقر بعد فكر طويل على أن يعمل . إنقض بعسكره ليلة من الليالى على الكهان فى المعبد الذهبى الذى كانوا يسكنونه ويمارسون من محاريبه سلطانهم الخبيث على النفوس . فقضى عليهم واحداً بعد آخر .

هذا مادونه المؤرخ الرحالة « ديودورس » عن عادة قتل الملوك فى كوش ، وهى أقرب ماتكون للحقائق . قابلها إذن بقصة « سالى » لن تجد بينهما إلا إختلافاً يسيراً، فالملك فى القصة يقتل الكهنة بسحر الكلمة والملك فى الحقيقة كما دون « ديودورس » فى مفكراته يقتل كهنة كوش إقتداراً وعنوة ظلت هذه القصة فى ضمير الشعب حتى رواها سنة ١٩١٢ أحد الرعاة لرحالة ألماني ، وكانت مملكة كوش قبل أفولها بقليل تعيش أياماً زاهرة ، تثقف نفسها بفلسفة الأغريق ، التى تمجد الإنسان ، وتشيد بالحياة ، وإلا لما ذهب الأمير الشاب يدرس هناك ، وينقل تمجيد الحياة والأحياء ، ثم يقتل الكهنة الذين يهددون الناس بالأذى والموت .

* * *

هذا ماكان من أمر قتل الكهان للملوك ، ولكن شيئاً آخر كما

قلت كان قد أشكل « فروبنيس » وهو أسلوب ألف ليلة وليلة . مالهذا الحمّال فى أول قرننا العشرين يقص قصته عليه بأسلوب عزف قبل إثنى عشر قرناً من الزمان ، على أرجح الأقوال . لقد عاشت شهرزاد فى أذهان خالقيها من الفرس والعرب بين القرنين الثامن والرابع عشر ، كما يؤكد بعض الذين عكفوا على تاريخ حياة هذه الفاتكة بالكلمة . ولدت شهرزاد فى فارس فى سنة ما فى القرن الثامن فيما يقول هؤلاء ، وترجمت قصصها للعربية آنذاك وفتن بها العرب فى كل مكان، وتداولوا قصصها بينهم؛ يضيفون عليها قصصاً أخرى من خيالهم الخصب وحياتهم الزاخرة ، حتى تجمعت هذه القصص الساحرة، فى كتاب يعرفه العالم اليوم فى كل لغة. وتساءل «فروبنيس» كيف إنتقل هذا الأسلوب فى الرواية لغرب السودان ، وإتخذ طريقاً طويلة بعيدة حتى يصل إلينا ؟ — وللإجابة على هذا السؤال فقد ركب سنة ١٩١٥ (بعد ثلاثة أعوام من سماعه قصة سالى) سفينة شراعية كانت تعمل فى البحر الأحمر، تجوب مرافئه، وتطوف الشاطىء الشرقى للقارة ، وكان صاحبنا يجلس الليالى الطوال يستمع لقصص البحارة ويغنى أغانيهم ، يشركهم فى كل شىء حين يخلدون للراحة على الشاطىء ، أو يجلسون للطعام فى غرفة المركب ، أو يريحون أذرعهم، وكانت عرى المودة قد توثقت بينه وبينهم. فأكد له هؤلاء تأكيداً أن قصص ألف ليلة وليلة بدأت فى حضرموت ، لافى فارس كما زعم الزاعمون ، وذهلوا حين ردد على أسماعهم ما يقوله الناس فى الكتب نقلاً عن المسعودى صاحب « مروج الذهب » وأبت عليهم آدابهم العربية ، أن يسخروا من كتبه وأقلامه ومداده ، وهم الذين يعرفون كل شىء عن السندباد البحرى الذى عاش خيالا أو حقيقة فى وجدان أهل حضرموت . وفرح عالمنا بهذا التحدى له ولأوراقه وعاد للمكتبات فى بلاده يحقق أين ولدت أساطير ألف ليلة وليلة ، فى فارس أم فى حضرموت أم فى البصرة ، وكيف إنتقل أسلوبها للسودان

وعاد « فروبنيس » إلى المانيا ، وعكف على دراسة القصص والأساطير التى جمعها فى غرب السودان ، وفى جبال النوبة، وكان يقرأ ها على لداته من العلماء من كراساته ، وفى ذهنه القصص التى سمعها من البحارة ، والآراء التى بينها لهم وهو يعايشهم فى رحلته التى أشرت إليها . ثم إنتهى إلى رأى يليق بأمثاله من العلماء. ولن أوجز لك ما إنتهى إليه، بل أحب أن أنقل لك عبارة كتبها تمثل رأيه وتمثل

أسلوب العالم الدقيق فيما يقول، وتمثل فى النهاية — وهذا هو الذى يعنينا فيما نكتب الآن — أن السودان كان على صلة وثيقة بالعالم المتحضر يأخذ عنه ماعنده ويعطيه الذى عنده . قال عالمنا :

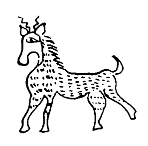
« إني أرى بين القصص التي جمعتها فى السودان ، والقصص التى قرأتها فى ألف ليلة وليلة شبهاً كبيراً ، يثير التفكير فى الرابطة بين « الأبيض » مثلاً فى غرب السودان وفارس بلاد العجم . يخيل إلى أن النبع الذى نقل منه السودان هو عين النبع الذى نهل منه مبدعو ألف ليلة وليلة، فى مطافها الطويل من فارس إلى العراق للشام، لمصر. بدأت هذه القصص فيما أرى فى جنوب الجزيرة العربية فى حضرموت، البلاد التى أشار إليها الرحالة الأقدمون والتى أنجبت — فيما أظن — «فارلماس» ذا البيان المبين، والخيال الذى أسر الملوك، وسحر الكهان فى بلاط ناب نبتــا . ربما كان « فارلماس » شخصاً بعينه ، بلحمه ودمه، وربما كان أصلاً وأساساً لهذا الشخص الذى تحدث به الناس قروناً عقب قرون، ومن يدرى لعل هذه الحقيقة السودانية عن « سالى » وأخيها الملك ، واحدة من هذه القصص التى كان يرويها الناس فى حضرموت، نقلها التجار لغرب السودان من هناك قبل أن يعرفها الهنود والفرس والمصريون ، لتجد طريقها لقصص ألف ليلة وليلة . أتت السودان كما نقلتها لك نقلاً عن الجمّال الذى صحبته فى رحلتى الطويلة، لا صقل فيها ولاتشذيب ؛ كذلك الصقل الذى تراه فى قصص شهر زاد . أهى خامة شهر زاد ؟ » .

لم يبعد عن الحق صاحبنا العالم الألماني حين كتب هذا فى مطلع قرننا الحاضر ، فأهل حضرموت كما كانوا قديماً ، أهل تجارة وهجرة ليومنا هذا الذى نعيشه ، لن تجد الآن وقد مضت خمسون سنة على الذى قاله « فروبنيس » ، أسرة فى سيون أو المكلا أو تريم ، أو أية مدينة من مدنها هذه المنتشرة فى الصحراء ، لم يهاجر واحد منها إلى الشرق الأوسط، أو البعيد فى سومطره وجاوه، أو الشرق القريب فى الشام والسودان والحبشة ، والعجيب الذى تفخر به حضرموت هو مكانتها العلمية فى قلوب الأفريقيين ، ولقد رأيت فى رباط تريم على حوافى الربع الخالى ، ونهاية الصحراء فى حضرموت الشرقية طلبة من يوغندا وآخرين من زنجبار ومدغشقر يدرسون أصول الدين فى جو يعيد للذهن معهدنا العلمى فى أم درمان ؛ قبل أن تمسه يد الإصلاح ، والأزهر الشريف كما كان منذ قرن ويزيد ، محاية وحصر وألواح ، ونار بالليل ، وفقر من أجل غاية أغنى ماتكون غاية : حفظ القرآن الكريم .

كانت حضرموت بعيدة عنا إذن ، ولم تكن بعيدة عن الساحل الشرقى للقارة الناهضة ، وهى اليوم كما كانت بالأمس .

إن الزائر اليوم للمدينة الصغيرة الصاخبة « مالندى » على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية – وتقع على بعد ٧٠ ميلاً من ميناء ممباسا فى كينيا – يجد التجارة والزراعة والإدارة فى يد قوم يتحدثون بينهم بالسواحلية ، ولكنهم يتحدثون إليك في شوق وود ، بعربية تسمعها فى جنوب الجزيرة العربية ، وهم يعدون أنفسهم من سلالة العرب هناك ، ويقولون إن آباءهم الأولين ، أتوا هذه الأقاليم منذ قرون ، تزيد على العشرة ، فقد بنوا فى القرن الثالث عشر مدينة « جيدى » التى أمست خراباً اليوم فى منتصف الطريق بين «ممباسا» و«مالندى» ، وكانت محط الأمراء والقادة والغزاة من جنوب الجزيرة .

ولقد طوف بي أحد العرب الأفريقيين حول « مالندى » وهو يقص على كيف حفظوا دينهم فى وجه الصعاب ، وكيف نشروه لابالسيف ولابالسلطان كما يفعل الآخرون ، ووقف بي عند صخرة عالية على المحيط ، وتكاد دمعة تطفر من عينه . ثم قال وهو يشير إلى فندقى الذى أقيم فيه : « أرأيت فندق السندباد ذاك ؟» قلت « نعم . أقيم فيه منذ جئت أمس » قال مزهواً فخوراً وكأنه التاريخ يتحدث : « وهذه ، الصخرة أمامك ، هى صخرة السندباد » وقلت «أى سندباد ؟» وكان رفيقاً بي عطوفاً ، لم يضق بالذى قلت ، فقد أخذني لحانوته وهو يشرح لى فى الطريق ، كيف كان التجار من عمان ومسقط وحضرموت يأتون هنا ويقيمون المدن على الساحل ويشترون الحبوب والجلود من داخل القارة . قلت : « أين قرأت هذا ؟ » قال : « أنا لا أقرأ ، أنا أسمع من أبي وجدى قبله . » وعرفت وأنا أتحدث اليه أن الذى رواه « فروبنيس » عن شهر زادنا «سالى » ، كان صحيحاً .



سَالى فوحـــمر

كانت « الأبيض » مركزاً من مراكز التجارة ، لأن سوقها الكبير كان فيه كل شئ يحتاج إليه الناس فى الزمان القديم . كان غنياً بالذهب والنحاس والبقر والخيل والحبوب . وكان المغاربة من شمال أفريقيا يأتون بالجمال ، ليبيعوا هناك ماعندهم من حاجات ويشتروا ما يجدون فى السوق ، وكانوا يلقون هناك عرباً من الشرق البعيد ، يأتون من جنوب الجزيرة العربية واليمن يبيعون البهار والطيب الذى إشتهرت به بلادهم ، ويشترون الحاجات التى يجدونها فى سوق الأبيض ، وكانوا يلتقون هناك بالتجار الزنوج القادمين من الغرب ، قرب المحيط الأطلسى من نيجيريا والسنغال . وكانوا يقابلون أهل الشمال ، ويشترون منهم البلح ، ويسمعون منهم الحكايات التى كانوا يروونها عن مروى القديمة وممالك النوبة ، كما سمعوها عن الرواة قبلهم . يزيدون قليلا ويحذفون قليلا ، شأن كل الرواة .

كانت «الأبيض» سرة أفريقيا ، وملتقى الشرق والغرب ، ولم يكن السفر معقداً مثل هذه الأيام ، لأن الناس كانوا بسطاء ، لايعرفون «الجمارك» ولايعرفون الجوازات التى يجب أن يحملها كل مسافر لبلد غير بلده ، فإذا وصل التجار إليها كانوا يبيعون ويشترون أثناء النهار فى سوق عامة يعرفها كل واحد . أو فى ظل بيت أو شجرة ، وإذا جاء المساء ذهبوا لأصدقائهم فى بيوتهم أو لدار الضيافة ، يتكلمون عن تجارتهم وعن بلادهم ، ثم يناموت لايدفعون قرشاً لأحد ، لأن دار الضيافة كانت فى الحقيقة ملك الجميع ، يبنيها رجل كريم قادر ، وإذا عز الكريم القادر تضافر الناس وبنوها . وفى المساء يجئ التجار وكل واحد منهم معه عشاؤه يحمله بنفسه ، إن كان رجلا فقيراً ، ويحمله له الخادم ، إن كان رجلا ميسور الحال ، ويتعشى أهل البلد والضيوف وهم يتكلمون عن الأسعار ، وحال السوق . ثم تجئ القهوة ، ويكون الكلام عن الأسعار والأسفار والخيول والذهب والنحاس قد إنتهى فيقصون القصص ، وكانت قصصاً غريبة ، لأن الذين يحكونها كانوا يخترعونها ، يقعد الواحد منهم ، يسمع لأخيه وهو فى نفس الوقت يفكر فى الحكاية التى سيحكيها حين يجئ دوره ، وكان منهم التاجر وراعى

الإبل ، وراعي البقر ، وكان منهم صغار التجار وصعاليك العرب ، يعيش الواحد منهم بذراعه القوية ، وعصاه الفتاكة ، وكان أكثرهم أذكياء ، يعرفون الدنيا جيداً من أسفارهم الكثيرة عبر الصحراء من الشمال ، وصوب المحيط من أعالى النيل، ويقابلون نظائرهم فى الهند، والسند، والبصرة، وسبأ، وحضرموت، وجاوة، وبلاد التكرور، والمغاربة، ويغامرون ويتعلمون.

من أجل هذا كانت قصصهم غزيبة ، فيها ذرات من حقائق عاشوها وفيها خيال. وليس مهماً أن تكون القصة حقيقية أم خيالية : المهم أن تكون لذيذة ، تسلى السامعين، وتشهد للقاص بالمهارة فى فن الحكاية ، وهو فن صعب لايقدر عليه كل واحد . يقدر عليه الذين يعرفون كيف يقولون الكلام الذى فى مخهم ، وكيف يرتبونه ترتيباً يستمع إليه الإنسان ، فيرى فيه وحدة مربوطة ، وتسلية تدغدغ الدماغ .

* *

فى ليلة من هذه الليالى التى كلمتك عنها ، كان الناس من مراكش، وتونس، وليبيا، والجزائر، وأرجاء دارفور، وكردفان، ودنقلا، والمحس، واليمن، وحضرموت، ونيجيريا، والسنغال، يحكون القصص ويشربون القهوة بالبلح ،ويضحكون ويتسلون ، ولكن رجلا من حفرة النحاس ، كان يستمع ولايتكلم، تدور عيناه حول الحلقة براقتين تنظران ، ويحمل رأسه على يديه، « يكورهما » مثل الصحن تحت خديه، ليسندهما على فخذيه وقد تداخلا معاً ، ليجلس مرتاحاً، يسمع مايقول الناس ، وذقنه على صدره سوداء طويلة ، يخالطها قليل من البياض متناثراً هنا وهناك .

كان أسمه «ود الحصول» وما كان ساكتاً لأنه غبى أو أبكم، لقد جاء « الأبيض » منذ أيام قليلة . وكان يريد أن يفهم هذا الخليط من العالم . كان من أسرة كبيرة فى دارفور يعرفها كل الناس ، لأنها كانت أسرة غنية ذكية إشتهرت بفن الصياغة ، وكان رئيس هذه الأسرة ، هو رئيس الصاغة كلهم فى دارفور ، ولما سمع بعضهم عن التجار الذين يجيئون الأبيض من كل فج عميق؛ جاءوا ليشتغلوا بهذا الفن الجميل، يربحون منه ، يبيعون الأساور وغيرها للمغاربة والعرب والنوبيين والزنوج ، الذين يردون السوق . وكان «ود الحصول» قد سمع بالنجاح الذى أصابه أهله، فجاء هو أيضاً يبحث عن

رزقه .

وقف فجأة في الليلة العاشرة من مجيئه وسط التجار والصناع والعمال الذين كانوا في دار الضيافة، وأمسك ذقنه بيده اليسرى ، ثم مر بيده اليمنى على وجهه من أعلى الجبهة ، حتى وصل أسفل الذقن يسرحها بأصابعه ، وسكت الناس ينظرون . واطمأن «ود الحصول» على أن عيونهم كلها دارت نحوه وتسمرت في وجهه، لا تنظر هنا أو هناك، بل إلى وجهه هو ، وقامته السمهرية، فقال في صوت لاتسمعه إلا إذا إنتبهت جيداً :

« يا جماعة ! أسمحوا لى . أريد أن أحكى لكم حكاية من بلادنا . لقد حكى أكثركم في الليالى السابقة ومن حقكم على أن أحكى لكم أنا أيضا ، كما حكيتم لى . »

حرك الناس أصلابهم على الأرض . يغرسونها جيداً في الرمل ليريحوا ظهورهم ، واتجهوا نحو صوته وقامته ، بعيونهم وأجسامهم ،فقال وقد فرح بصمتهم هذا ، ولأنه نجح في أن يشدهم إليه بصوته الخفيض . فقال :

« قصتى عن خراب كوش . »

وبدأ حكايته فقال :

* * *

هذه الحكاية حصلت قبل سالف العصر والأوان ، في وقت ما من عمر الزمان الطويل ، في وقت كانت فيه بلادنا كردفان ودارفور ، خضراء تجرى المياه في خيرانها ووديانها ، تسقى الزرع والبهم وتنبت القش . ولم تكن صحراء كما هي اليوم ، وكانت أسواقها كثيرة ، وتجارها أغنى التجار، ورعاتها أغنى الرعاة ، وكان الناس يقصدون بلادنا للعلم، فقد كانت مساجدنا عامرة بالعلماء ، وكان يجاورنا ثلاثة ملوك أقوياء ، ملك النوبة ، وملك الحبشة ، وملك الزنج ، وكانوا يخافون بأسنا ، ويطلبون ودنا .

كان ملكنا في دارفور إسمه الناب ، وكانت البلاد في ذلك الزمن تسمى نبتا ، وكانت العاصمة في حفرة النحاس، حولها قصور الناب وأعوانه، وكان الناب سيد حفرة النحاس ، وصاحب مناجم الذهب في البلاد ،لايأخذ واحد قطعة من النحاس إلا بإذنه ، ولايجمع حفنة تبر إلا بمعرفته . وكانت الإبل تأتى بلادنا من كل صوب لتحمل النحاس والذهب والحبوب لملك النوبة في الشمال الشرقى ، ولتجار الهند والصومال والحبشة والصين واليمن ، وتأتى الأموال كثيرة للناب عندنا ، ويحمل الناس إسمه في الشرق وفى



الغرب ، ويشتهر إسمه كل يوم .

كان الملوك يأتون دارنا هذه ، ليروا بأعينهم قوة الناب وثراءه ، وكانوا يرسلون الوفود يطلبون وده وحكمته ، لأنهم كانوا يعرفون عنه القوة والثراء والحكمة . وكنا نحن نعمل فى المزارع وفى المناجم ليل نهار ، لأن الناب نفسه كان واحداً منا ، لاينسى عمله ، ولايتركه لمن يستأجرهم ، يشرف عليهم وعلى أحوالهم ، فقد كانوا عمالا من الفرتيت فى الجنوب ، يرسلهم له زعماؤهم كلما طلب إليهم ذلك. كانوا لايعصون أمراً له ، لاخوفاً من بأسه فحسب ؛ بل لأنه كان يحافظ على حقوقهم با لحسنى أيضاً . وكان يعرف جيداً أن العامل المسوق الذى يعامل معاملة سيئة لايفيد . فمن الممكن لكل منا أن يسوق حصانه للماء بالضرب ، ولكنه لايمكن أن يجعله يشرب بالضرب .

كان الناب عاقــلا ، وكنا نحبه وكان العمال الغرباء يعملون أى شئ يريد بنية خالصة ، لأنه كان يسأل دائماً عن حالهم وأجورهم .

ولكن الله وحــده هو القوى العزيز ، أراد « للناب » أن يكون من أشقى الناس ومن أكثرهم حزناً على نفسه . هكذا قدر الله أن يكون أقوى الناس ، ولله فى خلقه شئون . وإليكم القصة .»

ثم طلب « ود الحصول » كوب ماء وشرب والقوم ينتظرون أن يمضى فى القصة ، ومضى يقول فى صوت أجش قوى كأصوات الرجال الأقوياء فى العادة !

كان الناب فى نبتا يحكم مدة من الزمان ثم . . . يارسول الله ! يذبح ، يقتل، ويتولى الأمر بعده ناب آخر . هكذا كان النظام ، منذ خلق الله « نبتا » وخلق ملوكها الأقوياء التعساء . كان يذبحهم الكاهن الأكبر ، كما يذبح الواحد البهيمة . كان الكاهن الأكبر ومساعدوه يذبحون الذبائح وينحرون الضحايا، ويوقدون النار ويرتلون الأدعية كل ليلة، ثم يجلسون فى فناء المعبد يراقبون النجوم . ويرعون القمر ، فإذا إقتربت النجوم من القمر على طريقة يعرفونها قالوا :

« إن أجل الناب تم .»

وساقوه إلى المعبد كمايساق الخروف ، ويذبحون الرجل وسط التراتيل والأدعية والصلوات . الناب طائع لايسأل فهذه عادة البلاد . ذبح أبوه قبله ، وذبح جده والناس عبيد لعاداتهم .

ثم جاء ذلك اليوم التعس ، وقالت النجوم « إن أجل الناب تم » .

وحمل الكهان الخبر للناس فحبس الرجال النساء فى البيوت ، ونحروا الخراف والعجول فى الشوارع وأوقد الكهان ناراً عظيمة فى الساحةالكبرى ، ووقف الناس خلف الأبواب ينظرون للكهان يسوقون الناب أمامهم وهم يرتلون التراتيل ويقرأون الأناشيد، ثم يذبحون الناب، فيعم المدينة صمت أليم طول اليوم وطول الليل .

وفى الصباح تدق طبول الكهان ، ويعرف الناس أن ملكاً جديداً سيتولى الأمر ، وكانت عادة بلادنا غريبة فى هذا الشأن . إذا توفى ملك يتولى الملك بعده إبن أخت الملك الراحل .

وكان إبن أخت الملك الذبيح إسمه « عكاف » فأعلنه الكاهن الكبر « ناباً » ، وكانت أيامه أيضاً عزيزة ثرية . كانت أيام رخاء وسعد . كان ملكا نبيلا مثل خاله، لكن هذه العادة وما كان يتبعها من ذبح ونحر ونار ، توقد هنا وتطفأ هناك ، وتراتيل لايفهمها أحد ، وصلوات يقيمونها فى المعبد وفى الساحة ، وكل هذه الأشياء إنتهت على عهد « عكاف » لم يعد بعده الكهان يذبحون « الناب » . صار يحيا كما يحيا غيره من الناس ، ويموت يوم يريد الله له أن يموت ، لايوم تحكم النجوم وهى خرس بكم . لكن أسمعوا وأعجبوا

أيها الأصدقاء لقد خربت « نبتا » بعد « عكاف » . نعم محيت من الوجود كما محيت عادة ذبح الملوك، والغريب أن الناس عندنا يقولون ، إن سبب خراب « نبتا » هو أن « عكاف » أوقف العادة القديمة . ومن يدرى . ربما كان البسطاء على شيء من الحق ، فقديماً قالوا :

« من فات قديمه تاه . »

الشاهد . . إسمعوا ماحصل بعد أن تولى «عكاف» الملك . تزحزح السامعون ليسمعوا كيف خربت « نبتا » وتناول بعضهم فنجان القهوة ، ليشغل نفسه بشئ إلى أن يتكلم « ود الحصول » ، والتفت بعضهم لبعض يهز رأسه .

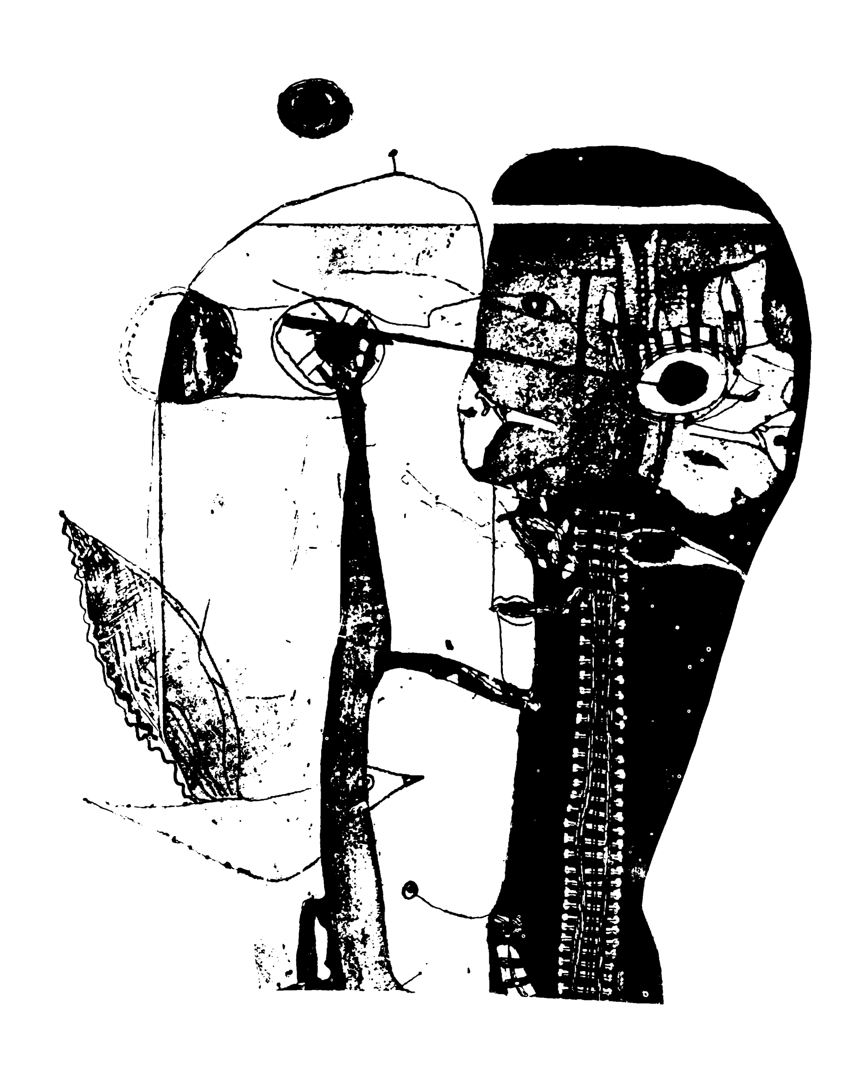
عجائب وغرائب .

وتابع ود الحصول قصة الناب الجديد وكيف خربت المملكة بعده:

كان أول أمر أصدره الناب الجديد « عكاف » هو تعيين الذين سيرافقونه فى موته ـ الذين سيموتون معه يوم تأمر النجوم بموته ـ ذلك لأن العادة جرت بهذا . يختار الملك زملاءه فى رحلة الموت ، وكان شرطاً أن يكون زملاؤه هؤلاء من أعز الناس عنده ، وأقرب أقاربه إلى قلبه . وكان من العادة أيضاً أن أول شخص نطق الناب إسمه ، هو الذى يقود الآخرين وراءه للساحة الكبرى ، يمشى هو أمامهم ، ويسيرون هم خلفه، يموت الناب أولا ويموتون هم بعده ، واحداً وراء الآخر . وفق الأسماء التى نطق بها، الأول أولا ، وهكذا ..

نطق الملك بإسم أول شخص فعجب الكاهن الأكبر ، وعجب الناس لأن هذا الشخص الذى أعزه الملك ، كان عبداً إسمه « فارلماس » وكان غريباً ألايحب الناب فى المملكة الطويلة العريضة إلا « فارلماس » العبد الذى أرسله له أحد ملوك الشرق البعيد ، هناك وراء بحر الشرق هدية منه . إختار الناب العبد «فارلماس» أول الرفقاء له فى رحلة موته ، وجاء الناس يسألون ، فقال لهم يشرح ما إحتاروا فيه :

« فارلماس عبد ذكى مرح ، يعرف حكايات الملوك والصعاليك ، وفى كل ركن فى العالم ، وحديثه شهى لذيذ ، لأنه علم نفسه فن الحديث والكلام الذى يشجى ويطرب . سيحكى لى القصص فى القصر ويسلينى إلى



أن تجئ الساعة ، وفى الدار الآخرة بعد أيامى هنا ، سيكون معى هناك بحكاياته ، وحكاياته ستكون رفقتى الأبدية . »

قـال الناس :

« إن الناب مسكين . فقد إتزانه خوفاً من الذبح » .

أما « فارلماس » فلم يخف ولم يرتجف ، على العكس ، قال لما سمع أن الملك أعزه بالإختيار للموت :

« هذه إرادة الله ، ولتكن . »

وتابع حياته يخدم فى البيت مع غيره من خدم القصر ويحكى لهم الأساطير بالليل ، يسليهم ويسلى نفسه وينتظر يومه ، ينتظر الكاهن الأكبر يحمل أخبار النجوم ليموت مع سيده . ومضى « ود الحصول » يقص على الناس ، وهم إليه مشدودون . قال :

وإنصرف كل واحد لعمله ، ونسى الناس كل شىء ، وأوقد الكاهن النار الجديدة الكبيرة أمام المعبد ، وكانت العادة أن يحرس النار الجديدة صبى وصبية ، يوقدانها كلما خبت ، لتبقى حية مادام الناب حياً . يعيشان جنباً لجنب ، فتى وفتاة ، لايلمس أحد منهما الآخر ، ليكونا طاهرين ، يوم يموتان ويذبحان يوم يذبح الملك ، ويطفئ بعدهما الكاهن الأكبر هذه النار ، ويعين فتى آخر وفتاة أخرى لحراسة النار ، إلى أن تجئ ساعة الناب فتخبو النار ، وتخبو حياة الصبية والصبى مع النـاب .



ووقع هذه المرة شيء لم يحدث من قبل .عين الكاهن الأكبر أخت الملك لتحرس النار مع فتى من المدينة ، وكان إسمها « سالى فوحمر » صبية فى زهرة العمر ، كان جمالها حديث الناس ، من تجار وصناع وعمال ورجال ونساء . وحين سمعت الخبر إرتاعت ولكن الخوف لانفع فيه . لقد وقع إختيار الكاهن الأكبر عليها ، وستذهب حتماً ، لتموت حين تموت هذه النار ، ويموت أخوها الناب « عكاف » ولافائدة من الكلام . لن يشفع لها شافع عند الكاهن الأكبر .

وانصرفت « سالى » للنار تحرسها وعكف « فارلماس » على قصصه يجودها ، وعمله فى القصر يتقنه ، ومضى الناب يزداد قوة وحكمة كذلك ، وأتته الوفود تطلب صداقته ، وتطلب أحياناً نصحه . وكان سعيداً ، لأن الشعب كان يحبه ، وتعود الناب أن يقضى المساء كله مع المختارين يتشاور معهم فى الأمور التى تحفظ الدولة قوية والشعب سعيداً . وفى الصباح الباكر كان يخرج على حصانه الأبيض الجميل ليشرف على مزارعه ، ويرى كيف يسير العمل فى حفرة النحاس ومناجم الذهب، ولم يكن فى حاجة لهذا التعب ، فقد كان عماله يحبون العمل كأهل نبتا كلهم ، وكانوا يقولون :

« العمل يزين الرجل كما تزين المرأة العطور » وهكذا كان الناب يختلط بأفراد شعبه يعلمهم من حكمته إذا جمحوا وطلبوا منه مالايطيق .

كان كل هذا جميلا ولكن . . .

أبت عيناه النوم فى ليلة من الليالى، وأراد الله له أن يشقى ويتعس. ذكره بأن هذا النعيم سيزول يوماً من الأيام ، حين تقرر النجوم ويأمر الكهان . تذكر أن كل ساعة من الساعات السعيدة تقربه خطوة نحو نهايته . ولو كانت طبيعية لما إمتلأ صدره هماً وغماً ، فالموت نهاية كل حى ، ولكنه لن يموت كما يموت الناس، لن يموت حتى كما يموت أفقر الناس فى مملكته. سيذبحه الكاهن الأكبر كما يذبح الواحد الخروف « موت وحقارة » .

حاول أن ينسى هذا، ولكنه لم يستطع، على العكس إمتلأ صدره خوفاً وغضباً، وفجأة لمح فى رأسه ضوءاً. وهكذا يفعل ربك ليخرج الواحد من الظلمات إلى النور، قال عكاف لنفسه :

« سأرسل لفارلماس ليقص على شيئاً من قصصه ، من يدرى ، لعله

يسليني وينسيني همومى . »

ثم أرسل إليه وحين أتى قال له الملك :

« هذه ليلة من ليالى النحس . أحك لى حكاية ، يا فارلماس »

قال «فارلماس» :

« أمرك يامولاى . قبل أن يرتد إليك طرفك . »

إبتدأ«فارلماس»يحكى ، وأطرق الملك يسمع ، وكان أول مرة يسمع فيها صوت عبده ، وإن كان قد سمع عن هذا الصوت الأجش القوى الفحل . مضى يسمع ويسمع ، ممسكاً أنفاسه يخاف أن تتلاحق فلا يسمع الصوت الذى كان قد شرع يرخى له أعصابه المشدودة . كان يخاف أن يتنفس ، وتفوته كلمة من هذه الكلمات العذبة الحلوة ، يرن موسيقاها الجميل فى أعصابه ناعماً ، لذيذاً ، خدراً ، كل شىء هناك صمت ليسمع صوت«فارلماس».حتى النسيم وقف . والشجر لم تعد أوراقه تحن . هدأت لتسمع . الكون كله أذن يصغى. نسى الناب طعامه وشرابه ، وهو يسمع ،ونسى الزمان أن يتحرك ، وقف هو أيضاً لايمشى كعادته. وقف الزمان يسمع ، كان ساحراً هذا الفنان. لأن الحوادث التى يرويها تنقل الناب من واحدة لأختها ، وهو لايحس. يسير مع بنيانها المرصوص أينما شاء له الفنان أن يسير . شئ آخر غير الحوادث ، الكلمات . إنها تخرج من فمه درة بعد درة فتعمل فى نفس الناب ماتعمل النفاثات فى العقد .

وحين إنتهى« فارلماس » من قصته مع الفجر ذهب الناب إلى مرقده وقد إنزاح عن قلبه الهم .

وفى مساء اليوم التالى أراد الناب أن يشرك زواره وأصدقاءه فى المتعة التى أحس بها أمس، فأرسل إليهم رسوله ، كما أرسل للوفود التى جاءت تزوره من بعيد ، فأكلوا وشربوا وجلسوا يستمعون لقصة من « فارلماس » حتى مطلع الفجر ، وخرج من عندهم ، وهو لايعرف كيف يحمل الهدايا التى أعطاها له الناب والزوار والوفود، ثياباً فاخرة من حرير الهند، وعطوراً طيبة من اليمن السعيد ، وتماثيل جميلة من النوبة ، وملابس من المغرب ، وذهباً من عندنا نحن من دارفور .

وتغيرت حياة « فارلماس» ولم يعد يغنى للخدم فى القصر، إذ لم يكونوا قادرين على تقديم المال والهدايا التى يجدها حين يحكى للناب والأمراء فى القصر كل ليلة ، يسحر الجميع بفنه ، ويرجع وراءه الخدم يحملون الهدايا ، وهكذا لم يعد عبداً فقيراً الآن، فقد تحولت حاله ، وأصبح حديث الناس فى المزارع وفى السوق وفى حفرة النحاس ، وفى مناجم الذهب . كان أولا عبداً لا يعرفه إلا العبيد، ويتبع العبيد إذا مشوا ، وصار الآن سيداً يتبعه الخدم أنى سار ، ويقفون له إن قعد. وكلما رأوه فى الطريق ، حسروا الثياب ، تحية له ولفنه وهكذا تدفع المواهب الناس للعلا ، وإن كانوا غير أهل لذلك بالميلاد .

وهنا وقف « ود الحصول » عن الكلام وتلفت يميناً ويساراً ليرى أثر كلامه على الناس، ومشط ذقنه كعادته، ومسح وجهه ، وأرسل عينه حول المكان ، وتابع القصة فقال :

وسمعت«سالى» ، أخت الناب ، حارسة النار ، بأخبار « فارلماس» فأرسلت لأخيها ترجوه ، أن يأذن لها ليلة تسمع فيها قصة من قصصه ، فقد سئمت منظر النار توقده كلما خبا وتمده بالحطب ليشتعل .

وأذن الناب ، وسمح الكاهن ، فجاءت ، ورآها « فارلماس » وهى داخلة وراء أخيها فى طريقها لمجلسها بجانب الناب، وما استطاع « فارلماس » أن ينظر للجمال ، لقد زاغ بصره. ولم تكن هى خيراً منه . رأت الرجولة القوية فى كتفيه ، وشرعت تنظر ، لاترفع عينها منه . علقت به وعلق بها والناب ينتظر والضيوف والوفود والأصدقاء ، وفارلماس لايبدأ ، كن بعيداً عن الناس فى ملكوت آخر ، وضاق الملك وسأل « فارلماس » : « هيا ! طال سكوتك الليلة . ألم تعد عندك قصص ترويها ؟ . »

وإلتفت « فارلماس » ، وظل يفرك عينيه ، كمن يودع رؤيا لذيذة ولملم أطراف نفسه المبعثرة ، وشرع يقص ويحكى .

وكان كعادته كل ليلة ، ساحراً ، يسوق الناس من حادثة لأخرى فى القصة ، وتتعلق نفوسهم بالكلمات العذبة ، التى يصف بها الناس والحوادث واستسلم الجميع لفنه ، وذهب كلهم فى إغفاءة حلوة .

وينساب الصوت من فمه لآذانهم، لأجسامهم، فتسلم نفسها لنوم عميق.

إلا «سالى» كانت يقظة متعلقة بفارسها القوى الجميل ، تلتهم كل كلمة يقولها . وعيونها لاتتحول عنه ، وعيونه عليها ، كأنه يقص عليها وحدها ، وكان على حق. لقد نام السامعون، وعيون « سالى » كالنجوم ساهرة. ترعى كل نغمة تصدر عنه ، كل لحن .

وإنتهت القصة ، فقامت « سالى » من مجلسها جنب أخيها ومشت نحو « فارلماس » ومشى هو نحوها والتقيا، ولم يجد أحد منهما مايقوله، وقفزا ثم تعانقا . ثم قالت له وقد فاجأته :

« لانريد أن نموت . »

« ماذا تقصدين ؟ »

« أقصد الحياة حلوة ، وكلنا ، الناب وأنت وأنا ، ننتظر الموت فقط . لاننتظر غيره ، والموت خير من إنتظار الموت . أريد لنحيا . الحياة حلوة

« آه فهمت . أنا غبى أحياناً . »

« حاشاك . إن عقلا يخرج مثل القصة ، التى سمعت لايكون غبياً . »

« كرم منك أيتها الأميرة . كرم ولطف . »

« نريد لنعيش ونسمع هذه الكلمات العذبة . نحيا من أجل الكلمات . »

« كيف ؟ أنا رفيق الناب فى رحلة الموت ، وأنت حارسة ناره فى رحلة حياته . تنتهين يوم تنتهى . ننتهى معاً . »

« لابد من وسيلة . »

« نهرب ؟ »

« لا . الصغار يهربون . الكبار يصمدون . »

« إذن ؟ ؟ » .

« دعنى أفكر . »

« كما تأمرين . »

« سأخبرك حين أجد الوسيلة . »

* *

وافترقا ، والجميع فى نومهم المسحور ، لايتحركون ، وذهبت من طريقها ذاك مع الفجر إلى الكاهن الأكبر . ذهبت تواً إليه .

خاف الكاهن وارتجف حين رأى « سالى » فى المعبد ، وتوسل إليها أن

تعود للنار سريعاً ، تحرسها وإلا حل بالبلادالخراب والشؤم ، ولكنها لم تجب على هذا الكلام ، وكأنها لم تسمعه ، وشرعت تسأله ،وهو يجيب ، يرجو أن تنتهي من أسئلتها ، وتعود مكانها . سألت « سالى » :

« من الذى يحدد ميعاد إطفاء نار وإيقاد أخرى ، موت واحدة ، وحياة ثانية ؟ من ؟ » .

« الله وحده . لا أحد غيره . الرب . »

« وكيف تعرفون أنتم إرادة الله ؟ » .

« نرعى القمر كل ليلة ونراقب النجوم ، ولاتحيد عيننا من السماء . »

« لماذا ؟ » .

« لنرى أية نجمة إقتربت منه وأية نجمة إبتعدت عنه . »

« ثم . . . . . . »

وهنا خاف الكاهن. ورجاها أن تعود للنار ، فأصرت أن تبقى حيث هى:

« يجب أن أعرف كل شئ . »

وشرح لها الكاهن الطريقة التى تلتقى بها النجوم والقمر ، ولكنها لم تفهم شيئاً مما يقول ، فقد كان كلامه معقداً ، لايعرفه إلا الكهان ، ولكن «سالى» لم تنهزم ، وإنتقلت لنقطة لم تخطر للكاهن على بال وسألته :

« ماذا يكون من شأنكم وشأن النجوم إن لم تروها ؟ »

« نذبح الضحايا . نقدم القرابين . نصلى للسماء . »

« إن لم تروها رغم الصلاة ، والقرابين ، والتراتيل ؟ » .

« إذن نضل سواء السبيل . »

وفرحت « سالى » وهللت وتذكرت الرب ، ربها . ثم قالت :

« الله أكبر ، ما أعظمه ، وما أقدره ، إن أعظم أعماله العظيمة كلها هى حياتنا على هذه الأرض ، أما كلام النجوم ، فلا أدرى عنه شيئاً .»

« ومن علمك هذه الحكمة ؟ » .

« عرفتها أمس فقط أمس ليلا. عرفت أن الحياة ، تستحق أن يعيشها الإنسان . » .

« مافهمت كلامك ؟ » .

« لقيت فارلماس وسمعت قصصه . إنه هبة من السماء يتحدث بصوت

الملائكة، وبحروف من نور ، إنه هبة أعظم من هذه التمتمات التى تعبدون بها النجوم . إنه يهب الحياة وأنتم خدم الموت . »

« مهلا مهلا . أنت مخطئة . حاذرى . حاذرى . »

« لكنك لاتدرى معنى الذى أقول ، أنت لم تر فارلماس ولم تسمع صوته ، أنا الذى سمعته . إنك يا أبى تعرف السماء وأنا أعرف الأرض . »

« الحق معك أنا لم أسمع قصص فارلماس . »

« لو كنت مكانك ، لذهبت إليه أراه وأسمع قصصه . إذن تنسى النجوم والقمر . »

« أحق هذا يا أخت الملك ؟ صحيح ؟ صحيح ؟ أم أنك تلعبين بعقل كاهن كبير السن ؟ . »

« جرب إسمعه ، ثم برهن لى على أنى مخطئة . »

« مخطئة ؟ » .

« فى قولى لك إن الحياة أولى من الموت . »

« إذن نسمعه فقط ، أعطنى وقتاً أفكر . »

« لك ماشئت من وقت ، سأصبر . »

* * *

وخرجت من المعبد تحملها الفرحة على أجنحتها الخفيفة ، فقد نجحت فى أن تقنع الكاهن ، بأن يرى وجهاً من الحياة مارآه من قبل ، وإتجهت مطيعة لنارها ــ تحرسها . توقدها إن خبأت ، وتحمل الحطب .

وجمع الكاهن الأكبر أصحابه ، وبعد جلسة طويلة إتفقوا على الذهاب لقصر الناب ، ليسمعوا قصص « فارلماس »، وأرسلوا رسولا منهم إلى القصر ليأخذ لهم الإذن ليحضروا الحلقة فى ذلك المساء ، وسمعت « سالى » بأنهم سيحضرون الحلقة تلك الليلة، فأرسلت رسولا إلى « فارلماس » ، يقول له :

« أتذكر أننى كنت أبحث عن وسيلة ، لقد وجدتها ؟ أبشر بخير كثير.»

ولكن « فارلماس » لم يفهم هذا الكلام ، وإن كان يذكر كلامها فجر أمس . قال يحدث نفسه جذلاناً فرحاً بالحياة ، كلها فى عينه نور . « نعم أنا لم أفهم كلام الرسول، ولكن الذى تقوله « سالى » جميل . لن تقول هذه الطفلة

الزهرة شيئاً غير حق أو خير أو جميل . » ثم جلس على كرسيه يرقب تلك الليلة ، وصورة « سالى » لاتفارق ذهنه . يراها مرة جالسة ، ويراها مرة قاعدة ، ويراها مرة تحمل الحطب للنار . رآها تعانقه مرة ثانية ، كما عانقته أمس.

* * *

وعند المساء كان الكاهن وأعوانه أول من حضروا الحلقة ، وعندما دخل الناب حسروا ثيابهم عن صدورهم ، علامة التحية للجالس على العرش. وجلس الناب وراء ستارة سوداء على عرشه ، والناس للأرض ينظرون ، فقد كان حراماً عندنا النظر إلى وجه الملك . من رآه قتل ، وجلست « سالى » على كرسيها ، يمين العرش . فتقدم الكاهن للستارة السوداء وخاطب الناب يقول :

« سمعنا أن قصص « فارلماس » أعظم شئ خلقه الله . »

فقال الناب :

« لاأعرف هذا . ولكن حسناً فعلت ، حين جئت وأعوانك لتسمعوا وحدكم وتحكموا من بعد . » فقال الكاهن الأكبر :

« شكراً لك مولاى ، إنك سمحت لنا ولكنك تعرف أننا لن نستطيع البقاء طويلا هنا ، سنخرج إن أذنت لنا حين يطلع القمر ، لنؤدى واجبنا لبلادنا وعرشنا . »

فقال الناب :

« كما ترون . . . إعملوا مايريده لكم الرب . »

فقال الكاهن :

« حفظ الله العرش ، وأدام عزه . »

ورجع للحلقة وجلس .

ومع المساء الباكر ، شرع « فارلماس » يحكى على عادته . وكلما تقدم الليل وتقدمت القصة سحر كلامه الناس وصار كل واحد فى الحلقة مثل الطير الأليف فى يده . يسوقهم حيث شاء . إن أراد لهم أن يضحكوا ، وإن أراد لهم أن يحزنوا ، والطير الأليف لايطير إلا حيث يشاء له سيده .

كانت هذه حال الكهان تلك الليلة . ناموا حين نام غيرهم من الناس ، لانجوم ولاقمر ، ولكن «سالى» لم تنم ، كانت تسمع كل كلمة ، وكانت عيونها عليه فى ضوء الصالة الخافت ، لاتحس شيئاً حولها . وكان هو كذلك ، يحكى

لها دون الناس ، وينظر تجاهها هى حين تجلس .

وإنتهت القصة مع الفجر ، وكل من فى القصر غارق فى الرؤى السعيدة فقامت « سالى » من مجلسها ومشت نحو « فارلماس» ترفع قدماً فى حذر وتضع الأخرى فى حذر . وحين أتت مكانه ، همست فى أذنه :

« تعـال. »

واقترب منها فارس الأحلام ، سيد البيان ، وهو يظن أنها ستعانقه كأمس . قالت : «تعال ، أقبل هذه الشفاه التى تنطق هذه العبارات . تعال .» وقبلته فى حنان، وأحس «فارلماس» إحساساً لم يعرفه قبل اليوم،واستسلم له وضمها بين ذراعيه يقول :

« عيناك هما اللتان توحيان . سحرى من سحرك .» وضم جسمها الصغير بذراعه القوية وسار بها بين النائمين ، حتى أتيا بوابة القصر ، تلعب بطرفيها نسمة الفجر ، وتنعش روحه القوية ، فقالت وعيونها على صدره العريض ، وأصابعها تجمع أطراف ثوبه المتطاير مع الريح :

« أرأيت الطريق فارلماس ؟ »

وأجاب وهو مطرق رأسه :

« نعم رأيته على الضوء الذى جاء من . . . . »

ولم تتركه يكمل كلامه ، دفعته للطريق وسارا ، هو لداره فرحاً كمن ملك الأرض وما عليها ، وهى لنارها ، فرحة بفارسها وبنفسها والأمل يملأ قلبها .

* * *

لقد وجدت الطريق للحياة ، وعزمت على أن تسيره كله وذهبت فى الصباح الباكر للكاهن تريد أن تعرف مافى خاطره ، وكان قد أوقد نيرانه وجمع قومه للصلاة ، وكان يرتل معهم ، يرجو هداية الله . لقد تولى زعامة المعبد منذ كان صبياً ، ولم يغب ليلة واحدة عن نجومه وأقماره إلاليلة الأمس وكانت ليلة تعسة . ظهرت تعاستها على وجهه الذى ملأته السنون بالخطوط . وكان أعوانه أكثر تعاسة منه . يدورون بالمباخر حول المعبد ، بعضهم يتمتم والبعض يرتل ، والضحايا ملقاة هنا وهناك ودمها مازال حاراً يتدفق ، وقالت « سالى » للكاهن الأكبر ، غير شامتة :

« مولاى يا أيها الكاهن الأكبر ماذا رأيت من أمر فارلماس ؟»

« لن أقول شيئاً الآن . »

« إذن وداعاً . »

« سأقول لك ما رأيت . »

« متى . »

« حين أسمعه ثانية . »

« أذاهب أنت الليلة أيضاً ؟ ».

« نعم . . آه . . ربما . »

« إذن أنت تحب قصصه ؟ » .

« لا ، لقد ذهبت أمس عن غير إستعداد . »

« أى استعداد يامولاى ؟ ؟ » .

« لم أتحصن ، وكفاك أسئلة . بنيتى أرجعى لنارك . »

وعند الليل تكرر كل شئ نام الكهان على يدى « فارلماس » كما نامت الوفود القادمة من بعيد ، ونام زوار الناب وأصدقاؤه ، وكبار التجار ورجال نبتا ، الذين كانوا يجيئون للحلقة . عملها « فارلماس » مرة ثانية . ولم يبق يقظاً واعياً ، إلاهو ، وإلا « سالى فوحمر » . قبلته وقبلها فى عنقها .

* * *

وسكت « ود الحصول » ثم مشط لحيته بيده اليسرى، ومسح وجهه بيده اليمنى ، وتزحزح العمال والتجار وأهل الأبيض ، الذين كانو فى دار الضيافة تلك الليلة، وحرك كل واحد منهم ظهره ليريحه، ولم تبق قهوة للشرب، فأخرج كل واحد مسبحة يشغل بها أصابعه ، ومال واحد منهم على جاره يريد أن يقول شيئاً دار فى خاطره فصاح الآخرون :

« هس . . هس . . . . »

ثم مضى«ود الحصول»يقص عليهم ما كان من أمر « سالى » و « فارلماس » والناب والكهان . قال :

وفى الضحى كنت ترى أهل المدينة جماعات ، بعضهم فى الشوارع وبعضهم تحت الشجر ، وبعضهم فى الحوانيت ، وبعضهم أمام القصر، وبعضهم قرب المعبد ، ولم يكونوا يحكون عن « فارلماس » هذه المرة . لقد

حكوا كثيراً وإنتهى الكلام فى أمره . صار كالشجر ، كالنجوم ، كالرمال وكل هذه الأشياء التى لايتكلم عنها الناس ، لأنها أمام أعينهم ، وليس هناك مايمكن أن يقال . أريد أن أقول إنه صار ظاهرة من ظواهر الحياة . كانت الجماعات تحكى هذه المرة عن الكاهن الأكبر ، الذى لم يؤد واجبه ليلتين كاملتين لم ير فيهما نجمة ، ولم ير القمر . لقد سلم نفسه وأعوانه لهذا الساحر « فارلماس » ونسى واجبه المقدس . ماذا حصل لهم هؤلاء الكهان ؟ مادهاهم ؟ ومانتيجة هذا الإهمال على البلد ؟

خاف الناس ، هذه النجوم الصاعقة ماذا ستفعل بهم وببلادهم إن تركت هكذا ، لايذبح لها أحد ، ولايصلى لها أحد ؟ هل تغضب من هذا الإهمال ، وتنسف الارض تحت أقدامهم ، وتخرب المملكة ؟ وجعل كل واحد يسأل الآخر ، وإمتلأت القلوب جزعاً من النجوم والقمر ، وتفرقوا على غير شئ، فلم يعرفوا ماذا يفعلون. لو كانت النجوم تقبل النذور والضحايا منهم ، لذبحوا كل شيء ولكن النجوم والقمر لاتعرف إلاالكاهن الأكبر وأعوانه .

وفى الليل تجمع كبار أهل البلد فى منزل واحد منهم ليبحثوا فى هذا الموضوع . لابد لهؤلاء الأغبياء أن يرجعوا لواجبهم وإلا هلك الناس وخرب البلد . ثم وقعوا فى مشكلة يتساءلون :

« من الذى سيتكلم مع الكاهن الأكبر ؟ » .

وبعد كلام طويل وقف رجل عجوز يقول :

« أنا أتولى الكلام عنكم . والتغلب على الخوف الصغير ، أسهل من الموت والخراب . » وفرح القوم ولكنهم قالوا له :

« إن الكلام مع الكاهن يجب أن يكون فى تلك الساعة . لاتتأخر . من يدرى ربما ذهب هذا الأحمق مرة أخرى ليسمع قصص « فارلماس » ، وتنزل علينا النجوم ، وهو نائم هناك ، تحت فعل السحر . »

ولبس الرجل أحسن ملابسه ، وأصلح ذقنه وتعطر ، وأخذ معه خروفاً سميناً يذبحه بين يدى الكاهن، قبل أن يتكلم ، وقال له أخوانه كلهم ، فى صوت واحد :

« على بركة الله » .

قال الرجل العجوز بعد أن ذبح الخروف بين يدى الكاهن وأذن له بالكلام : « مولاى متى يجئ الموسم الجديد ، موسم الذبح والنحر ، وإيقاد النار الجديدة وإطفاء نارنا الحالية ؟ أنا أسأل هذا السؤال لأنى أنوى السفر قريباً للشرق وعندى بضاعة أخاف أن تبور إذا تأخرت عن موسم السوق ، وأخاف أيضاً أن أنتظر الموسم القادم، وأتأخر عن موسم الذبح هنا. »

ودق قلب الكاهن دقات سريعة من الخوف، فلم يكن يظن أن أحداً سيسأله هذا السؤال . فقال يصطاد الكلمات وهى تطير من ذهنه، لأنه لايعرف مايريد أن يقول :

« . . . أ . . . أ . . . أ . . . إنتظرنى . . . إنتظرنى يوماً واحداً . يوماً . . أ . . . أ . . . أرجوك . . »

وعطف الرجل العجوز على محنة الكاهن ، فقال فى صوت وديع مهذب : « سآتى غداً يامولاى . سدد الله خطاك، وفقك الرب الكبير . لا خبت نار الناب إلا حين تريد لها النجوم أن تطفأ . إنه شاب عطوف .»

ورجع لأخوانه ، وتجمعوا حوله يسألون. فقال :

« تركت الكاهن فى جزع . فى جزع أقوى من جزع الناس . »

أما الكاهن فجمع الكهنة داخل المعبد، بعيداً عن الناس ، ووقف بينهم يسأل :

« هل رأى واحد منكم النجوم أو القمر أخيراً ؟ . »

ولم يجب أحد على سؤاله، وطال الصمت، فوقف كاهن شاب لايخاف وقال له :

« إن أحداً لم ير النجوم منذ ليلتين ولا القمر . كلنا كنا نذهب معك للقصر نسمع قصص « فارلماس » حتى مطلع الفجر ، ولانخرج إلا مع مطلع الشمس ، حين تكون النجوم قد ذهبت لمأواها لتنام وتريح نفسها بعد إضاءة الليل بطوله . »

وبكى الكاهن العجوز يقول :

« سيهلك الله الحرث والنسل فى البلاد ، فقد نسى الناس عملهم، ونسى الكهان واجبهم، وضعف الجميع أمام قصص لاحقيقة فيها ولاحكمة. قصص

تليق بغير الكهان ، ممن يطلبون تزجية الفـراغ . »

وفزع الكاهن الأكبر لما رأى زميله يبكى ، وأرتجف هو نفسه من الخوف ، لأن شيئاً مثل هذا لم يقع من قبل . ولم يسمع به ، ونسى المسكين كل شئ حوله ، ووضع يديه على رأسه ، وصاح ، لايدرى مايقـول :

« كيف وقع هذا ؟ كيف ؟ ماذا أقول للناس حين يسألون ؟ ماذا أقول للتاجر الذى يريد أن يذهب لموسم السوق فى الشرق ؟ يارب السماء ساعدنا. »

وبينما هو يصيح ويصرخ ، لمع فى خاطر زميله العجوز رأى ، فصفق وسكت الجميع ، فقـال :

« يا إخوانى ! هذه إرادة الله . إرادة السماء . إن الله هو الذى أرسل لنا «فارلماس» ، وهو الذى وضع السحر فى فمه ، ينفثه كلمات ، ولن ينجينا من هذا الساحر الا الله الذى صنعه وأرسله فينا رسول خراب ودمار . إن لم يقتله ربنا الآن ، خرجنا وهلكت ديارنا . لن نستطيع القيام بواجبنا المقدس مادام حياً بيننـا. »

ولكن الكاهن الأكبر كان مشغول البال بالتاجر الذاهب للشرق . فقـال لايعى مايقـول : « لكنى وعدت الرجل أن يأتينى غداً . ماذا أقول له إن جاء يسأل ؟ ماذا ؟ » فلم يجبه أحد على هذا السؤال وسكت الكهنة . وساد صمت طويل وكلهم فـارغ البال والفؤاد ، لايعرف كيف يفكر ، فتفرقوا داخل المعبد ووضع كل واحد يديه خلفه ، وصار يمشى حول أعمدة المعبد يتمتم .

* * *

لكن الكاهن الأكبر ، لم ير نفعاً فى هذا . إتخذ طريقه للفتاة التى كانت سبب عذابه وحيرته . ذهب يقابل « سالى فوحمر » قرب نارها الموقدة ، وكان يأمل أن يجد عندها شيئاً يطمئن قلبه ، ولكن « سالى » الذكية عرفت أن قلب الكاهن قد إضطرب ، وإزدادت تعلقاً بالحياة ، لتعيش من أجل « فارلماس » وسارعت لذلك تشيع فى نفسه القلق ، وسألته غير عابئة :

« ماذا جاء بك هذه الساعة بسيدى الكاهن ؟ »

ولم يعرف صاحبنا مايقول ، فما جاء لغرض بعينه . جاء حين حار فيما نفعل ، وكان ذهنه مضطرباً كقلبه ، فسألت ثانية تقـول :

« هل وافقـتنى ؟ » .
« وافقتك فيم ؟ » .
« على أن الحياة طيبة حلوة ، لاحق لأحد أن يأخذها من أحد ، كما تفعلون . »
وسكت الكاهن الأكبر طويلا ، ينكت الأرض بعكازه ، ثم فى هدوء لايتفق والغليان الذى كان يفور فى باطنه قال :
« ينبغى أن يموت فارلماس ، ينبغى أن يقتل . إنه يعمل مالايرضى الله والكهنة . » .
وكانت « سالى » اللعينة واثقة من نفسها ، تعرف أن الشيخ قد خرف ، حين تملكه الجزع ، فقالت فى هدوء مطمئن :
«لقد نسيت أيها الشيخ أن «فارلماس» رفيق الناب فى رحلة الموت ، مثلى ، والعادة هى أن يقتل الرفيق يوم مقتل الناب ، لاقبله ، ولابعده . . . . أم قد تغيرت عادات بلادنا ، ياترى ؟ » .
وحار الكاهن مرة ثانية ، وكان قد إطمأن إلى حل ، فقال :
« إذن أتحدث إلى الناب . »
قالت :
« حسناً تقول . إن الله يسكن فى جوف أخى . أسأله عن رأيه . »
ووقف الكاهن يريد أن يفهم هذا الكلام ، ولكن « سالى » كانت قد مشت نحو كومة الحطب ، كيلا تجيب على شئ . مشت توقد النار .
ولما وصل صاحبنا القصر ، وجد « سالى » هناك ، سبقته ، جالسة إلى يمين أخيها وراء ستاره الأسود ، فوق عرشه حيث لايراه أحد . قال الكاهن وعيناه تنظران للأرض :
« عفواً عكاف . عفواً أيها الناب العزيز . »
وتمدد على بطنه فوق الأرض ، يداه ممدودتان أمام رأسه . وجعل يتمتم ، لايقول شيئاً : « هم هم . . . . هم . »
فنطق الناب :
« تكلم أيها الكاهن الأكبر ماذا فى قلبك ؟ ماذا بشغل بالك ؟ قل لنا ، دع فمك يحدث عن قلبك . دعه يتكلم . »

فسأل الكاهن وهو لايرفع رأسه ولايحرك ذراعيه :

« حدثنى أيها الناب ملك نبتا وسيدها المطاع عن فارلماس ، من هو ؟ ماهو ؟ أية لعنة حلت بنا ، أيها الناب ؟ حدثنى . طمئن قلبى المذعور . »

فتحدث الملك فى هدوء الملوك، وكان ذكياً ، يعرف الحياة والصراع عليها : «جزعت ياكاهن ليلة من الليالى السود وتذكرت الموت الذى ينتظرنى، وخفت كثيراً منه ، فأنا أموت كما تموت الشاة . وأراد الله أن يخفف عنى فذكرنى بـ« فارلماس » العبدالذى وهبنى إياه ملك من ملوك الشرق من وراء البحر ، فأرسلت إليه كى يقص على قصة تزيل الهم عنى ، وجاء يحكى لى حكاية ما إنتهت إلا وأنا نائم مع مطلع الفجر . وعرفت بعدها أنه هو الدواء لأحزانى ، وأعطيته ملابس تتفق ومقامه الجديد عندى ، إعترافاً بجميله . ثم جاء الليلة التالية ، ومابعدها وكل ليلة ، وكان يعود بهدايا فاخرة من ضيوفى ومن الوفود القادمة لتحيتنا من بعيد ، لقد أعجبهم حديثه اللذيذ ، وقصصه المربوطة بخيوط الحرير وأصبح فارلماس بعدها غنياً يعرفه الناس ، ويحبه الفقراء ، لأنه صار يعطيهم مما عنده ، ويحبه الأغنياء لأنهم يجدون عنده العقل الحكيم والذكاء النظيف . وهو اليوم قرة عين الناس فى المملكة ، لأنه فنان . هذه قصة فارلماس » .

ورفع الكاهن رأسه حين سكت الملك ، وإعتدل فى جلسته، ثم قال وهو يدعو الله فى سره أن يمنحه الشجاعة ليقول مافى صدره :

« مع هذا ينبغى أن يموت . لقد قلب عاداتنا رأساً على عقب ، ولاحياة لنا إن نحن تركنا عاداتنا القديمة . إن لم يمت « فارلماس » تغيرت الأرض والسماء . »

فقال الناب :

« أيها الكاهن الأكبر . هذا حكم الموت على أنا ، قبل أن تنتهى سنينى لأنى كما جرت العادة ينبغى أن أموت قبل رفقاء رحلة الموت . »

فقال الكاهن وهو يسمع عين الكلام الذى قالته « سالى » :

« ويفعل الله مايريد . »

فقال الناب :

« ليكن ذلك ولكن الشعب ينبغى أن يعرف هذا الحكم الجديد . ينبغى أن يشهد على بالذى قلت لك وعليك بالذى قلت لى . » .

وأظلمت الدنيا فى عين الكاهن ، فما كان يتوقع كلاماً كهذا وخرج يهرول من عند الناب يحمل الخبر لأعوانه ليعرف رأيهم فيه .

ولكن « سالى » بقيت عند أخيها تفكر فى شئ بعيد عن هذا كله . كانت تفكر فى صانع المعجزات الذى يخلق من الكلمات العذبة عالماً لطيفاً فيه السعد والحزن ، والضحك والبكاء ، والحكمة والغباء ، والنعيم والشقاء . قالت للملك وقد خلا الجو لهما :

« يا مليكى ، يا أخى ، ياعكاف . لقد إقتربنا من نهاية الطريق لن نموت بأمر النجوم والأقمار والكهان بعد اليوم . لم يبق فى قلب كاهن واحد ثقة . لقد إضطربوا . جزعوا وخافوا ولم يبق فى طريقنا إلا قليل نسيره ، رفيق موتك سبب حياتك . قصص « فارلماس » ألقت الرعب فى قلوب الذين يأخذون حياة الناس ، ولاحق لهم فى الذى يفعلون.» وأحس الملك أن شيئاً مايدور فى عقلها الذكى الأريب فقال وهو يمازحها :

« كفاك ثرثرة . ماذا تريدين ؟ » .

فقالت وأوجزت الكلام :

« أريد فارلماس زوجاً لى . أنا أحس أن القدر يريدنى زوجة له تسكن عندها نفسه . » وأحس الناب بحنين قوى نحو أخته ، وعاطفة قوية ، ووضع أصابعه الخمسة فى شكل كوب على رأسها ، يحركه فى حنان ، ويمسك عنقها بين أصبعين من أصابعه . وطال صمتها ثم قال : « أختى العزيزة ليكن ماشئت وشاء القدر . ليكن. » فركعت أمامه ، ثم قامت وقبلت عينيه وانتهيا إلى رأى فى تلك الليلة .

* * *

وفى الصباح وقع مالم يكن يتوقعه أحد ، خرج المنادى من القصر ، يعلن فى كل صوب من المدينة أن « فارلماس » سيحكى فى الساحة الكبرى حيث تقع الحوادث الكبيرة ، مثل ذبح الناب وإطفاء النار حين يموت ، وإيقادها من جديد حين يتولى العرش ناب جديد ، وعجب الناس للخبر ، فقد إنتقل « فارلماس » منذ زمن بعيد ، إلى قصر الملك يقص عليه قصصه ، وعلى الكبار من الناس . لم يعد يحكى للمساكين ، منذ إكتشف الناب سحره. لم يسمعه أحد من الشعب منذ نقله « عكاف » من مكانه من الأكواخ للقصور ، من الجماهير للكبار .

وإنتظر الشعب المساء يعدون كل ساعة تمر ، وذهبوا للساحة ، واتخذ كل واحد مكاناً يقربه من الوسط .

وعجبوا أكثر حين رأوا خدم القصر ، يعدون عرش الملك فى ركن الساحة . أتوا يحملون العرش ، ليجلس عليه الملك وراء ستاره الأسود ، وجلس الناس صفوفاً خلف بعض يرقبون ، وكان الكهان أول من حضروا ، فقد كانوا كغيرهم من الناس ، فى حيرة من هذا الأمر . صفوفهم قبالة عرش الناب ، حيث يجلسون عادة حين يجتمع الناب بشعبه إذا كان هناك أمر خطير ، يريد أن يعرفوه وأن يعرف رأيهم فيه . وخلف الكهنة جلس أهل العاصمة ، أتوا مئات فى أول الأمر ، ثم ألوفاً حين تقدم النهار ، ومالت الشمس نحو خطواتها الأخيرة فى رحلتها ذلك اليوم .

وجاء الملك تتبعه «سالى» ، وتتبعها الوفود والكبار والأعيان ، ووقف الناس فى أمكنتهم فى الساحة ، وغطوا الرؤوس كيلا تقع عيونهم على الناب ، وحسروا الثياب عن صدورهم تحية للجالس على العرش وإجلالا لمقامه العظيم ، وجلسوا حين أحسوا أن الستار أسدل على العرش وقد جلس سيده عليه ، وعلى يمينه أخته .

ومن مجلسه فى الحلقة تقدم «فارلماس» لوسطها . دخل كالعزيز الكبير يجر أذيال ثوبه الحرير ، وراءه خادم يحمل جرة الماء التى يشرب منها حين يجف حلقه ، ومن منتصف الحلقة إتجه نحو الناب ، سيد الناس ، وحسر ثوبه عن صدره خافضاً رأسه قليلا ، والناس يرعونه بعيونهم ، تكاد تخرج من حدقاتها من فرط مايسددون النظر إلى قوامه الفارع ، وصدره العريض ، ولونه الأخضر ، وعيونه السوداء الواسعة ، وإلى كل شىء فيه وقد زان جمال الرجل وفتوته ، فنه الجميل ، ولكن الصمت لم يطل ، إرتفع صوت الكاهن الأكبر يقول :

« يا أهل نبتا . هذه ليلة الحق ، والحق لايخاف أحداً أبداً إنه يظهر واضحاً مضيئاً كالقمر ، لقد خرب هذا الغريب بلادنا ، كل عاداتنا ، ونحن لانعرف إن كان هذا الرجل فعل فينا فعلته هذه برضاء الله . سنعرف الليلة أى رجل هو ، من أنصار الله ، أم أعوان الشيطان ، سيظهر الحق الليلة . »

وجلس . وإمتلأ قلب الشعب خوفاً من المصير ، وجزعاً من القدر ، ولكن « فارلماس » ماسكت على هذا الكلام وقال بأدب وتواضع :

« يا أهل نبتا، يا أخوانى ويا أخواتى. لاتخافوا ولاتجزعوا. أنا عبد من عبيد الله. لاحول لى ولا قوة. أنا مثل أى واحد فيكم. أنا لست مثل الكاهن الأكبر. أنا أعرف أن الشر كثير فى نفوس الناس، وأنى أكرهه وأرفضه ، وأنى أحب الحياة الشريفة . الشر يغضب الله ، وأنا لا أعمل شيئاً محرماً . لقد منحنى هذه الحياة الجميلة . أزهارها وأشجارها ، جبالها وحقولها، فتياتها الفاتنات وأصوات الطيور العذبة، هدير الأمواج فى المحيط ، وكل شىء نعشقه ونعيش من أجله. يا أخوانى فى ليلة الحق سيحكم الله بين الكاهن الأكبر وبينى : وأنا عاشق كلمات ، عاشق حكايات . سينير لنا الرب السبيل، ويقضى أمراً كان مقضياً قبل أن نكون نحن . »

وإتجه « فارلماس » صوب عرش الناب يتمنى أن يرى « سالى » ويطلب من وجهها الجميل الوحى ومن ذكائها الشجاع ومن عينيها القويتين السداد والتوفيق ، ثم إلتفت للجموع فى الساحة وقد علقت عيونها بعيونه ، وإلتفت ألى الكهان ، يضم كل واحد أثوابه ويتململ فى مجلسه، لايطيق صبراً ويريد إن يرى نهاية « فارلماس » وقد أكد لهم الإله فى المعبد ، أنه سيمتحنه الليلة ، إن كان شراً أراح الناس من شره ، وإن كان خيراً فكر فى الأمر .

شرع « فارلماس » يقص قصة جديدة ، لم يسمعها الناب فى قصره ولم يسمعها الخدم ولم يسمعها التجار وأهل السوق، وكان صوته أعمق وأجش من كل مرة، ينتقى كلماته كما ينتقى الصائغ الذهب النظيف، ويختار الكلمة الحلوة ويربطها بأختها ربطاً، وتحدث فى النفس الأثر الذى يريده. كانت كلماته ندى على النفوس مثل الرذاذ على أرض عطشى ، والغريب العجيب أن الناس كانوا يشمون رائحة الزهور ، التى كان يصفها فى قصته ، ولم تكن هناك رائحة بالطبع ولكن الرضا عن الفنان ، هو الذى جعل الناس يحسبون أنفسهم فى بستان كله ورود وزهور ، وعاش الناس فى خيال لطيف خلقه لهم « فارلماس » وكانوا ينتبهون من وقت لآخر فيرون وجهه الأسود كبدر التمام ينير كل شىء حوله . . . .

وجرت حوادث القصة تنعش النفوس وتهدهدها فتستسلم طائعة لرؤى لذيذة ثم لنوم من بعد، وإستسلمت الجموع فئة فئة ، كلما تقدم الليل ، وتقدمت القصة ، يسمعون صوت « فارلماس » كأنه صدى من بعيد ،

لايفهمون كلمة ، كلهم نيام ، ولكنهم يحبونه ويتعلقون به ، ينعمون بالموسيقى ، التى يشحن بها كل عبارة من عباراته ، حتى بانت نجمة الصباح من بعيد و« فارلماس » واقف مكانه لم يبرحه . وفى هذه اللحظة أسرع بحوادث القصة ، وذهبت النعومة من صوته ، وإختفت الرقة ، حين إرتفع قليلا قليلا ، ثم هدر كالمياه تنحدر من شلال حجارته سود غلاظ ، وكالنيل أيام فورانه فى الصيف . وإرتفع أكثر صاخباً يملأ القلوب رهبة حتى دقت فى الصدور دقاً عنيفاً ، يكاد أن يسمعها الواحد كالطبل ، ثم صحا الناس وعادت النفوس لشاطىء الصحو من رؤيتها البعيدة اللذيذة ، ولكن القلوب تختلف. بعضها صلد قوى وبعضها رقيق .

وقع صوت « فارلماس » على بعض القلوب ناعماً كالنسيم ، كالجنة ، لكنه هدر فى بعض الصدور كأنه عزرائيل ملك الموت، قابض الأنفاس . وإختلطت هذه القلوب كلها فى الساحة ، بعضها إمتلأ حناناً وبعضها الآخر رعباً وخوفاً ، تصادمت كلها كما تصادمت عربات يقودها أغبياء ، لايقفون عند اللون الأحمر فى الساحة ، تروح وتجئ مع صوت فارلماس . إن أرادها أن تهدأ إستقرت . وإن أرادها أن تصخب فعلت مـــا أراد . تلتقى وتتفرق كالسحب فى السماء ، ليلة ريح عاصفة تسوقها هنا وهناك ، تخلطها مرة، وتفرقها مرة بيضاء . . سوداء . . رمادية لاتعرف أين يسير بها الريح ،صواعق الغضب تضرب وتفزع القلوب ، ورعود الخوف تتلوى من بعيد وقريب ، بروق تملأ الكون نوراً ، وتختفى لاتراها العين غير لحظة . كلها تطارد بعضها فى ساعات قريبة من بعض .

* * *

وقف هنا « ود الحصول » وقد أحس بأنه أتعب الناس بهذا الوصف الذى يصعب عليهم أن يتتبعوه إن لم يكن الواحد منهم صاحب خيال حى ، يرى الأشياء بعين الخيـال ، وكان يقصد إلى هذا الوصف ، لأنه كان يريد أن يبين للسامعين حالة النفوس التى كانت تستمع لقصة « فارلماس » فى الساحة الكبرى لكل الناس فى نبتـا .

جلس « ود الحصول » هذه المرة ، وشرب كوب ماء ، وتحرك الناس من أماكنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض ، وعلت الأصوات حتى وقف « ود الحصول » مرة ثانية، ومشط لحيته بيده اليسرى كما يفعل عادة ،ومسح

وجهه بيده اليمنى . كأنه يصحو من نوم طويل عميق . وعرف السامعون أنه بدأ يعد نفسه ليتابع قصته فرجع كل واحد مكانه وسكت ، لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا أمر الناب ونبتا ، وأمر « سالى فو حمر » و« فارلماس » .

ثم قال والعيون حوله تتابع كل حركة منه . قال « ود الحصول » فى صوت خفيض :

« وطلعت شمس النهار . »

وسكت لحظة إستوثق فيها أن الناس معه يسمعون ، ثم تابع يقول :

*

وإنتهت قصة «فارلماس» مع الفجر وعادت النفوس مكانها ، وكانت كما قلت لكم قد طارت شعاعاً ، يا رفاق. إلا نفساً واحدة طارت وماعادت . تلك هى نفس الكاهن الأكبر . أضحت أثراً بعد عين . وتباعاً تباعاً وراءها طارت أنفس أتباعه . ماتوا . ماتوا لم يبق واحد منهم . رقدوا الرقدة الأخيرة مثلهم فى هذا مثل غيرهم من الناس ضعاف القلوب لم يقاوموا سحر«فارلماس» غرقوا وخشعوا . وكان يوماً من أيام نبتا ، التى لم ينسها الناس .

وتجمع الأحياء حول الموتى يحملونهم إلى البيوت . ثم وقفوا فجأة ينصتون . إنطلق صوت ناعم ، رقيق . وسط الحلقة فى الساحة يقول :

« يا مليكى يا أخى ياعكاف ياناب نبتا ألق عنك القناع . ألقه بعيداً . دع الناس ترى وجهك . ألقه ، وأرم به . أذبح الذبائح ياناب أرضنا الطيبة . وأذبح بيدك أنت القوية . لقد جئنا نهاية الطريق ، نصحبك وتصحبنا ، وتمت إرادة الله. لقد ذهب الكهان لم يقتلهم أحد ، وهم هم الذين وقفوا بين يديك ، يقولون إنها ليلة الإمتحان . لقد فصل الرب بيننا وبينهم . شكراً له . »

ومشت نحو أخيها الناب . وأزاحت الستار الأسود عن عرشه وجرى الخدم ، يتممون مابدأت أخت الناب . أزيح الستار ، وأزيح القناع . فإذا الناب وجهاً لوجه مع شعبه ، الذى رفع رأسه وما إرتفع منذ قرون يعاين . ضجوا وصخبوا وصاحوا يحيون حريته وحريتهم الوليدة ، يصلون :

« يا الله ، يا الله ، ما أعظم قدرتك . »

وإنتحى واحد منهم لصاحبه يقول :

« هذا الوجه الفحل الجميل . لم حجبه الكهان عنا . ما الحكمة يارب ؟ »

فأجابه صاحبه :

« لاحكمة فى الأمر ، ولانفع لنا نحن . أراد الكهان أن يملكوا هم من وراء حجاب . لعبوا بعقلنا ، وضعوا الستار الأسود ، والقناع الكثيف ، وكانت نفوسهم خاوية . يحبون السلطان . لالينفعوا الناس ، بل ليحكموا الناس . »

« هذا أكثر مما أدرك . »

« أتدرك أن الجمال آية من آيات الله . علامة من علامات وجوده . ظله هنا على الأرض ؟ »

« هذا أدركه وأحسه بدمى . »

« أحق أن يحجبوه عنا ؟ أكان حقاً هذا الذى . . . . . . »

ولكن الحوار لم يعد يسمع . لم يعد الصديقان يسمعان . غرقت أصواتهما فى أصوات الحناجر الفرحة تهلل وتكبر وتسجد شكراً لله . يعبدونه وحده، يرون آياته فى الذى خلق من قوة وحياة .

*

وركب الملك جواده ولاحجاب ولاستار ولاكهنوت يباعد بينه وبين قومه . كان يرى الناس حوله ويلوح بيديه مؤشراً . أخته وراءه . على جواد أصهب . الذكية اللعينة . ذات العزم والبأس . كانت على بعد خطوات وراءه على يمينه . وعلى بعد خطوات أيضاً على يساره « فارلماس » . وتوجه الناب للمعبد . خلف ووسط شعبه الطليق . يغنون وينشدون الأناشيد ويرتلون تراتيل جديدة . ألهموا بها إلهاماً . وقد وضعت الكلمات فى أفواههم الحرية الجديدة، إلى أن أتوا فناء المعبد . يصلون على روح الذين ذهبوا من أهليهم تلك الليلة . ويحمدون الله أن منح القلوب الصلدة القوية لهم . هم الأحياء .

وفى فناء المعبد وقف « عكاف » وحوله شعبه القوى . فلم يبق فيهم ضعيف . وحفر ثلاث حفر . وضع « فارلماس » فى كل منها بذرة من صرة كان يحملها فى يده . ثم حفر الناب حفرتين ووضعت « سالى » فى كل واحدة منها بذرة أخذتها من « فارلماس » وكان غريباً . غريباً . أن تنبت البذور ساعتها خضراء . كالشباب . كالأمل . فتعجب الجميع غاية التعجب .

وعند الظهر ذهب الناس ينظرون . ليطمئنوا إن كان حقاً ما رأوه .

أم خيل إليهم . حقاً لقد نضجت الحبوب على الشجر ، وإزدهرت الأوراق على الأغصان . ياقدرة الله !

ورجع القوم للمدينة . يخبرون الناس بالمعجزة التى رأوها رأى العين وذاع الخبر فإندفع الناس لفناء المعبد . يذكرون الإله ، و يطلقون البخور . ورجعوا بيوتهم ، وقلوبهم فرحة . ذبح كل رب أسرة خير ثور فى مراحه ، ليوسع على أهله فى يوم الفرح والسرور العظيم .

وأول المساء خرج موكب الناب . نحو المعبد . ليرى هو أيضاً الزرع والثمر . وليطفئ النار . وكانت موقدة وقد نسيها الناس يوم سرورهم الأكبر . وهكذا فعل . وخرج المنادى يعلن للناس . أن عبادة النار والكواكب قد ذهبت . ولن تعود بعد أن ذهب الكهنة ، وجرت كل سيدة لبيتها لتطفئ نارها الصغيرة الموقدة . رمز إسارها وإسار من فى بيتها .

وكان حتماً أن تحتفل « سالى فوحمر » إحتفالا كبيراً ، وإحتفلت بأسلوبها الفريد . فقد أوقدت ناراً كبيرة . أكبر من نار الكهان من خشب الصندل ، وأرسلت منادياً يصيح فى المدينة : « ياعذارى نبتا تعالين . » وجئن مئات يهرولن . يردن ليسمعن « سالى » فتحدثت إليهن . وأعطت كل واحدة منهن جذوة نار لتوقدها فى بيتها ، غير تلكم النار . نار العبودية التى ذهبت مع الكهان .

*

ولم يذبح أى ناب لنبتا بعد هذا اليوم لأنه ناب ، ولم يذبح صبى لأن الكاهن إختاره ليحرس النار . ولم تذبح صبية . وبقى « عكاف » على عرش نبتا إلى أن مات فى اليوم الذى إختاره له ربه ، وخلفه على العرش « فارلماس » زوج الأميرة « سالى فوحمر » . لأنه كان أقرب الناس لنفس الشعب ، وكان فى الأصل واحداً منهم . فصعد مقاماً علياً . بفنه . لابسحر كاهن. فنه وحده هو الذى صعد به . وقد إختاره « عكاف » رجلا يرضاه الناس. ولم يختره كاهن . وفق عادات قديمة . كلها دمومو ت .

وسكت « ود الحصول » . فأطرق الناس يظنون أن حكايته قد إنتهت ، وقد طالت لياليها . ولكنهم رأوا حسرة على وجه « ود الحصول » وإنقلبت

بعد قليل لحزن خفيف ، فسأل سائل منهم إن كان قد أرهقه الحديث ، فهز « ود الحصول » رأسه ليقول لهم ليتها كانت الخاتمة ، فاعتدلوا كلهم مرة أخرى ينتظرون ، وإندفع « ود الحصول » يتم ولم يمسح ذقنه ، ولاجبهته ، كما كانت عادته قال :

« كان فارلماس آخر ملوك نبتا . خربت البلاد بعده يارفاق . » وعلتهم الحسرة التي رأوها على وجهه ، فقد صحبوا « فارلماس » ليالى وألفوا صحبته ، وكرهوا أن يموت . فقد كان حياً في وجدانهم فحلا قوياً ، كمن لا يقدر عليه الموت ، قال «ود الحصول»: إنتهت بإنتهاء أيامه ، أمجاد بلادنا ، وكانت كثيرة. كانت أيامه خير أيامنا . ملأ « فارلماس » كل أسماعنا وأبصارنا . وكان ملكاً ذكياً . لايبت فى أمر دوننا . يشير علينا ونشير عليه . فإتسعت التجارة على أيامه وإمتدت الأرض المزروعة لكل بقعة تستطيع يدنا أن تصل إليها ، وكثر الذهب والتبغ والنحاس عندنا هنا . نرسله كل وجهة . فوق النياق والإبل . وسمع الملوك عنه . فكانوا يأتون بلادنا . يسألون النصح والإرشاد ، ونأخذ منهم النصح أيضاً والحكمة . وكان « فارلماس » لايفتأ يقول لزواره : «كل نجاح أصبته أنا . هو نجاح هذا الشعب . فهو فوق كل ناب . » وكان الأمر كذلك . وكنا نطيعه حتى وإن كرهنا أمره . لأننا نعرف مراميه .

وملأ الحسد قلوب الملوك والأمراء . كما ملأها الخوف من هذا الرجل الذى جعل من الشعب حاكماً . يسمع له . ويمشى خلفه . وهو واحد منهم ، يدلى برأيه مع رأيهم . لانجرؤ عليه . ولايجرؤ علينا . خاف هؤلاء من شعوبهم أن تقول لهم أعملوا ببلادنا كما يعمل الناب ببلاده فى نبتا ، وإتفقوا فيما بينهم وجمعوا جموعهم ، وهجموا على نبتا فى مكر مدبر وخداع لئيم . كان واحد منهم يهجم من جهة فتذهب الجيوش لتلقاه . فإذا آخر يهجم من مكان آخر . فتذهب بعض الجيوش لتلقاه . وهكذا تفرقت جيوشنا . وهرعنا نحن لعونها . ولكن بقية من الذين تركهم الكهان خلفهم يؤمنون إيمانهم غرروا بالنساء والأطفال وقليلى العقل والذمة . فمنعوا عنا الإبل والخيل حين ذبحوها كى لانتنفع بها . وخربت بلادنا مرتين . ضاع زرعها

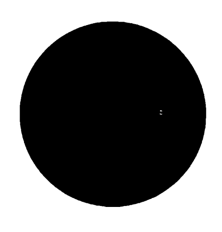
وحيوانها ، ومات رجالنا ، ومات قائدنا « فارلماس » وسيفه فى يده ، يحارب أعداء الخارج مرة ، والكائدين فى الداخل مرة – وكان هؤلاء أمر مذاقاً فى لسانه – وماتت بعده حزناً عليه « سالى » خوفاً من العيش دونه .

وإختفت بعدها وبعده ، مملكتنا الزاهرة وتولى الأمر فينا أجانب ، تسندهم بقية كانت قد بقيت من الكهان ولو كنا قد عرفنا أمرهم جيداً لذبحناهم قبل أن يذبحونا ، لكنهم خادعون، إستعاروا فى ظل الغزاة والفاتحين قليلا من الأرض التى أخذناها منهم على عهد « سالى فو حمر » .

ونسى الناس عندنا مع الوقت مناجم الذهب وحفرة النحاس ، ولم يبق لعاصمتنا ذكر إلا فى القصص والأساطير التى يتداولها الناس ، عن حكمة « فارلماس » وفنه القديم ، فن القصص ، وعن فتنة « سالى » وذكائها ، رحم الله تلك الأيام .

وهنا صاح السامعون. لا أعاد الله تلك الأيام فهز «ود الحصول» رأسه يوافقهم ومشط لحيته بيده اليسرى ومسح وجهه بيده اليمنى . وأفاق السامعون من أحلام نبتا . وأنغام « فارلماس » وجمال « سالى فو حمر » . إن هذا الرجل الذى سكت أسبوعاً لايتكلم كان قصاصاً عظيماً . جاء سوق الأبيض بعد أن هزها أسلافه . بعد « فارلماس » و« سالى » وكلما جاء ذكره هذه الأيام قال التجار والناس :

« آه ذلك الرجل الذى قص علينا قصة « سالى فوحمر » شهرزاد بلادنا »







• جمال محمد أحمد

• كتب كثيراً للصبيان في مجلتهم التي تصدر عن وزارة التربية والتعليم حتى الآن .

• كتاب عن الجذور الفكرية للقومية المصرية طبع مرتين باللغة الإنجليزية .

• نشرت له دار الهلال كتاب مطالعات في الشئون الأفريقية في الصيف الماضي .

• عرب كتاب الدولة الاتحادية وطبع في دار الحياة - بيروت .. وهو يعد الآن طبعته الثانية

• عرب كتاب اضواء على أفريقيا للإستاذ داقدسن والجدير بالذكر ان هذا الكتاب ترجم لأحد عشرة لغة

• إشترك في ندوات عن الشئون العربية والأفريقية وسيصدر كتاباً يحوى بحوثه في هذه الندوات